صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة
في إطار الصندوق الوطني لترقية الفنون و الآداب

الجري في عصر ضبابي

مجموعة قصصية

© منشورات الشهاب، 2009.
10 ، نهج ابراهيم غرفة، باب الواد ، الجزائر.
www.chihab.com

ردمك : 978-9961-63-776-0
الإيداع القانوني : 2009-1502

عبد الوهاب حقي

الجري في عصر ضبابي

مجموعة قصصية

منشورات الشهاب

كلمة على الهواء

ما كنت أحب أن تستدرجني النرجسية، لكي أبدأ كلمتي متحدثا عن نفسي. بحسبي أن أتحدث عن أثر. !

أنا لبنة صغيرة من بنيان شامخ الأركان،

تلقائيا ، ندرك أن اللبنة -مهما صغرت، تدعم صرح الجسم وتعمل على تماسكه، ومن حق هذه اللبنة أن تبدي رأيها بالحيز الذي تشغله، وفي الغاية . من هذا الشغل !

منذ نعومة ظفري وأنا أكتب !

بلغت الثمانين وأنا أكتب !

من أجل الكتابة سُحلتُ، عذبت !

للكتابة سجنت وأهنت !

ما رميت القلم ولن أرميه !

لن أكتب لأحد ! أو عن أحد !

أكتب لشعبي ولأمتي أدبا تحريضيا !

من أجل حياة كريمة للإنسان أكتب !

من أجل السلام للعالم أكتب !

من أجل التحرر والوحدة العربية أكتب.

من أجل النرجسية والنفعية

لم ولن أكتب !

عبد الوهاب حقي

الجري في عصر ضبابي

امتطيت صهوة جوادي العربي الأصيل، أبحرت في متاهات المجهول!

همم (عبيان) تطاول،مد جسمه الانسيابي، شرّع ذؤابته، نصب ذيله. انطلق يعدو مخترقا حجب الضباب البليد!

كم أشعر باعتزاز، وأنا على ظهر جواد عربي مثل عبيّان!

الجواد ، على غير عادته استدار فجأة، أفزعتني ملامحه الغاضبة، قال بتحد :

الجواد العربي الأصيل لا يحتاج إلى سوط محمر الحواشي!

تبسمت وقلت : قرّ عينا يا صاحبي، فما عهدتك تجري بالسياط، فأنا أول من يعرف أن النخوة العربية في رأسك لا تثمن! والسوط الذي ترى، له مهام أخرى!

ألا تشعر أنك استبقت الأحداث، وإنك لن تستطيع صبرا! هيا. هيا نتابع مسيرة المجهول في الزمن الضبابي. وليكن في علمك. أنني أجري لمجرد الجري! ولكي لا يتهمون فارسا

عربيا بالإقعاء والتخاذل! أدرك أيضا أن الجري وراء اللاوعي، ليس هدفا استراتيجيا مقدسا أنشده. لاسيما وأنا الآن أصارع الضباب!

أذكرك، أنني كنت في شبابي أمقت مقولة (الميكيافيلية) الغاية تبرر الوسيلة.

أما الآن. فلا أدري أية قوة تشدني نحو الميكيافلية! فلعلها الوسيلة الوحيدة التي أدرك بها غايتي التي أفتش عنها!

عبيّان هز رأسه، لا أدري، استخفافا أم موافقة! أسرع يحث الخطى، وهو يصهل. كأنني به يريد أن يصل صوته إلى كل مكان. أو يسمعه ملكوت السماوات العلا! أتراه هو الآخر آمن بالميكافيلية ؟.

أبحرنا، تصحرنا، حلقنا! مشوارا طويلا. لم نعثر أثناءه على أثر للحياة، هل أمحت الحياة ؟.

بغتة، تصدى لنا ديك تسربل بالسواد. يحمل سيفا يمانيا، مصقولا رشيقا، لم يمهلنا الديك! صاح بصوت يبعث الهلع في نفس أشجع الشجعان.

أجفل جوادي، كاد يكبو.!

سقطت أنا. تدحرجت بعيدا.

الجواد العربي، لا يتخلى عن فارسه! جاء يلملم خيبتي! حملني ووضعني بتحد قبالة الديك إياه!

كان الديك يقهقه! له عرف عجيب مشرَّع كسيف عنترة!. منقاره حاد، كرمح ابن الوليد. عيناه مستديرتان تتأججان كعيني طارق!

تململ الديك، نفش ريشه، ارتعش، دنا منا وقال : لا عليكما، أنتما ضيفان عندي.

صبيحة كل يوم، يصيح الديك، يوقظ النيام، الجميع يستيقظون في نشاط عجيب، لم يتخلف أحد!

قلت للحصان : أرأيت الفارق ؟، عندنا كلهم نيام، يشترون النوم، ربما اتخذه أكثرهم وسيلة. ألسنا في زمن الوسائل المبررة !

بل إن بعضهم يتناول مخدرًا لينام أكثر.

لاح الديك من بعيد، توقفنا عن الثرثرة، دنا منا الديك. حيا تحية الصباح، تبعته دجاجة رشيقة أنيقة. لم يسبق لي أن رأيت شبيها لهذه الدجاجة !

همست في أذن جوادي : دجاجة السماء، لا تشبه دجاجة الأرض !

جعلت أوصالي ترتجف، تلعثم لساني، أي سر يكتنفها ؟. أي سحر تلبسني ؟.

حشرية الحصان أعادتني إلى ساحة الوعي. حين سأل : عجبا ! حتى الدجاجة يتدلى سيفها على قدها. رغم أن بلادكم تنعم بالأمان !

قهقهة الديك كادت توقعني أرضا، ثبت بصره، أجاب بروية الحكماء : تعلمنا هذا منكم، فحين ألقيتم سلاحكم. واستسلمتم للرقاد، سرقت سيوفكم، فنمتم أحياء ودفنتم أحياء !

لم أع بقية مقولته لأنني كنت أجوس خطوط طول وعرض الدجاجة !

لن أعترض (فرويد) بعد اليوم على نظريته التي ترجع كل شيء إلى الجنس !

نبهني حصاني، ارتد ناظراي عن خطوط الطول والعرض، والقطبين حتى !

أنصت، ولّى الديك وهو يسترسل قائلا : جئتما تبحثان عن أشياء افتقدتموها في درككم الأسفل، ليكن في علمكم أننا لا نستسلم للنوم، ولا لأحضان الفاتنات !

أدركت أنني المقصود، تقوقعت على نفسي، تفهمت أن للديك حاسة سادسة تعطيه البعد الإدراكي.

تدخلت بحديث، أي حديث ! المهم أن أثبت له أنني مازلت في ساحة الوعي. وأن الدجاجة لم تسلبنيه كاملًا !

تجرأت، وخاطبته قائلا : سيوفكم يمانية ماضية. ألا تعيرونا سيوفا ؟.

- ما فائدة السيوف بدون حكمة معاوية، وساعد صلاح الدين. وعنجهية الحجاج ؟

أسقط في يدي، حاولت أن أجرب آخر أسلحتي، حتى الواهي منها. قلت بقنوط المفلس : أما من مساعدة، لقد افتقدنا كل شيء على الأرض ! افتقدناها في السماء أيضا ؟. آمالنا معلقة بكم !

رد الديك بصرامة وحكمة، : الحل هناك، خفض سبابته في عصبية إلى الأسفل.

ما كدت أنظر إلى أسفل حيث الأصبع، حتى قصف الرعد، هلعت قلوبنا !

رعدهم مدو ! برقهم خاطف محرق !

هدّأ الديك من روعنا ! طمأننا وقال : ملكوت السماء يخبركم : بأنه أعاركم سيفا حافظوا عليه، واعرفوا كيف وأين تستعملونه !

ما كدت أمد يدي لأتناول السيف، حتى توارى الديك ! تبعته الدجاجة ! نسيت السيف، كل جوارحي واكبت الدجاجة !

أحقا أننا جميعا مصابون بداء الدجاجات ؟!

هبطنا إلى أسفل، حيث أشار الديك.

بفعل قانون الجاذبية. ضاعف الجواد سرعته. دليلنا أصبع الديك التي غدت كسهم الاتجاه الإجباري.

مددت يدي إلى السيف الذي وعدتني به السماء، لم تقع يدي إلا على الضباب !

تطلعت حولي، استنجدت بقومي، وجدتهم «صرعى كأجداث نخل خاوية».

جريت هنا وهناك، حاولت استثارة ديك في الحي يوقظ النيام، رأيت كل الديكة لا طئة في جحورها قرب الدجاجات، تغط في سبات أهل الكهف !

حاولتُ، صحت، عربدت، تلاشت كل عنترياتي ! لم يستيقظ ديك واحد !

حصاني صهل مستنكرا، صاح بقوة، امض، فتش عن ديك في كل مكان. فالساحة لم تعقم بعد. حاول ولا تيأس. لا بد أن تعثر على ديك يمتلك رجولة خالد. وعنده سوف نحط الرحال.

لوحت السوط في كل الاتجاهات. ضربت هنا، ضربت هناك !

تلفت إليّ عبيان وقال : حقا إنني لم أستطع صبرا الآن أدركت لمن تصنع السياط !

ليرات أبي بكران

- أبو بكران سكران،. أبو بكران سكران،.

تراكض الأطفال وراء عجوز يتمايل في مشيته. وهم يهزجون ويصفقون :

- أبو بكران سكران،. أبو بكران سكران، أبو بكر، ر،. أ،ن

أبو بكران حطه الزمان، ألا رفقا أيها الصبيان، ابتعدوا، الرجل مريض، يتحامل على نفسه، الكامن منها والمكشوف. خانته قوة الجذب الداخلية ما عاد في مقدوره جمح جماح ماء مثانته، تبللت ساقاه، تبلل عرقاً، تبللت الأرض تحت قدميه !

العرق يغرقه، دموعه تغرقه، ماء المثانة أغرقه !

في أول زاوية جلس القرفصاء. اندس في نقطة ميتة، الماء يتسلل بدون استئذان. اتكأ على جدار راح يجتر قهر الزمن.

جعل يراقب المارة. إنه يتهيب الناس !

الناس هنا في وطني جاحدون. كما بعض الصبية الملاعبين،

لا لا، يوجد خيرون، أليس هؤلاء الأطفال هم صورة عن طفولتنا، إنهم لا يختلفون عن حسون جمال، عبود، على،

يوم كنت في مثل عمرهم. كونت منهم يوم ذاك فرقة مهمتها مضايقة جنود الاحتلال الفرنسيين. إذ كنا نتوزع على الجهات الأربع من الثكنة، نلهي الحرس بصيحات وعواءات. إما في الجهات الأخرى فكنا نتسلل إلى المعسكر. نختطف ما خف حمله. استمرت مقاومتنا هذه حتى يوم الاستقلال.

يوم الاستقلال كان فاتحة خير للوطن ولي بصورة خاصة. إذ وزعت علينا الأوسمة التقديرية، ومنحتني البلدية رخصة كشك لبيع الجرائد والتبغ.

ابتدأت في الكشك من نقطة الصفر. كونت اللبنة الأولى في تدعيم صرح حياتي. تزوجت أنجبت إبني البكر، أسميته (بكران) تيمنا بجدنا الأكبر، وبه صرت أكنى «أبو بكران»، رزقت أربع بنات حسان، ملأن حياتي بهجة وحبورا. الفرحة والحبور لم تعمر طويلا، إذ سمعت دوي انفجار شديد. كما قنابل المستعمر الفرنسي التي كان يقذف بها مدننا، الانفجار الشديد أطاح بي، الكشك تطايرت حجارته، داري الملتصقة بالكشك هوت، أضحت رمادا، كومة أنقاض، أشلاء زوجتي وبناتي تناثرت أشلاء شلوا فشلوا !

لجنة الخبراء عزت الحادث إلى انفجار قنبلة، من مخلفات قنابل المستعمر أنا وحدي أعرف سر القنبلة.

دفنت السر بنفسي. كنت أحتفظ بها وببعض الأسلحة والوسام في صندوق كذكرى لأيام النضال !

رغم جسامة الحدث حمدت الله، ولا يحمد على مكروه سواه، لأن إبني بكران كان خارج الدار لحظة الانفجار.

مرة أخرى تضيق بي سبل الحياة، التفتِ الأنشوطة حول عنقي، وجدتني هائما مشردا عاطلا عن العمل.

العمل عز علي، صرت أتسكع، أذرع الطرقات، أحد الرفاق القدامى توسط لي لدى رئيس البلدية. وظفني الرجل في مصلحة النظافة، سلمني مكنسة مصنوعة من الأشواك. وعربة يد.نجمع فيها القمامة من الطرقات.

لم أرفض مهنتي الجديدة، لم أعتبرها مهنة وضيعة ، العمل شرف،

يوما كنت أجر عربة الزبالة، تعبت قدماي. اتكأت على العربة أسترد أنفاسي. لأستجمع قواي لمشوار جديد. وصلني نباح كلب يعوي بشكل متهدج، تطيرت، تشاءمت. جعلت أردد مقولة حفظتها. أبا عن جد، تقول : (عويت في ديار أهلك). ابتدأت أبسمل، أحوقل. أتلو المعوذات،

- الحق يا أبا بكران، الحق، إلحااااق،

- خيرا يا رجل !ماذا دهاك ؟. خيرا إن شاء الله !

- من أين يأتيك الخير أيها الرجل المسكين، أسرع ولدك بكران قتل ! صدمته سيارة. لحظة خروجه من المدرسة،

أهميت، انكفأت على وجهي، أخذت ألعق التراب، أنثره على وجهي ورأسي. كما امرأة فجعت بعزيز،

افتقدت الشعاع. الوحيد المتبقي لي. والذي أطل منه على كومة الأمل، ثم، ثم فقدت الوعي،

استعدت الوعي بعد أيام. لا أدري لها عدا ولا حصرا، ألفيت نفسي ممددا على سرير في مستشفى. في مهجع يضم عددا من المرضى.

الساعة الآن ساعة استقبال الزائرين. عرفت ذلك لكثرة عدد الأشخاص حول الأسرة، كل سرير مريض تحلق حوله عدد من الأصدقاء أو الأهل. كل واحد كان يحمل هدايا متنوعة، فاكهة، طعاما، باقة ورد، أنا الوحيد بدون زائر. كأني مقطوع من شجرة.

انتهت مدة الزيارة، لم يقاسمني أحدهم تفاحة، برتقالة، تمرة، كم كنت أشتهي تمرة دجلة نور اللماعة، ابتلعت ريقي المر.

هشت الممرضة لحظة رأتني قد فتحت عيني أول مرة منذ دخولي هذه الغرفة، خاطبتني بحنان :

الحمد لله على السلامة عمي أبا بكران، أقلقتنا عليك، إنها مشيئة الله. كان المرحوم والدي يحدثني عنك. عن إيمانك،عن وطنيتك الفذة، كثيرا ما كان يشيد بوطنيّتك وشجاعتك. قال لي إنك كنت تصطاد جنود المستعمر، كما تصطاد العصافير. حدثني كيف وسعتم نشاطكم بعد أن شببتم عن الطوق. لتطالوا أسلحة وذخيرة المعتدين لتمدوها إلى المجاهدين في معاقلهم، انتشرت آنذاك أخباركم التي روعت الفرنسيين، وألهبت مشاعر

المواطنين الغيارى. وكنتم فخر الوطن. ومصدر قلق الجنود. لذلك راحوا يلاحقونكم ويطاردونكم، وقد تمكنوا من إلقاء القبض عليكم، لقد أراني والدي -رحمه الله-

- رحمه الله.-

أراني عدة جروح وكدمات جراء التعذيب الوحشي الذي مارسوه عليكم. لم تهنوا ولم تستسلموا حتى نعمت بلادنا بنعمة الاستقلال، والدي نال وساما ، مازلت أحتفظ به كذكرى غالية. هل لديك وسام ؟،

-وسام وسام، الوسام يا ابنتي هو الشيء الوحيد العزيز الذي أمتلكه.

لاحظت الممرضة الطيبة دموعي تتلاحق. وكخبيرة علم النفس، غيرت الحديث والأسلوب قالت وهي تتصنع ضحكة :

- حدثني والدي أيضا: أنكم كنتم تستولون على أحذية الجنود وهم نيام. فكانت هذه العمليات تثير ضحككم. ولاسيما حين كنتم تتوازعونها، هذا صغير، ذاك كبير ! هذا جديد ! هذا مهترئ ! فتلقونه وسط أمواه النهر. ضحكت !كما لم أضحك من قبل، ضحكت هي من القلب ثم صاحت :

- أسكت، دخل الطبيب المهجع،

الطبيب رفقة معاونيه دخل يتفقدنا ، وصلني،جس نبضي. وضع المسمعة على قلبي. عقب قائلا :

- تمام، كل شيء تمام،و على ما يرام، يمكنك الخروج فورًا ،

تعرضت لأزمة بسيطة، اتصلي بأهله ليجلبوا له سيارة تنقله إلى داره.

دار ! أهل ! سيارة !

رأت الممرضة دموعي. بكت وما كانت لتبكي من قبل. لأن مهنتها هذه حجرت عواطفها ، لكثرة المآسي التي تمر بها يوميا ! دنت مني، حدثتني برفق المواسي :

- لا عليك يا عم، الدنيا مازالت بخير. كل المواطنين يتذكرونك، كلنا أهلك ما كدت أخرج من المستشفى. حتى تذكرت عربة الزبالة والمكنسة. لقد تركتهما في تلك الزاوية المشؤومة، وجدتهما سالمتين. استأنفت عملي. أما أوقات الفراغ. فكنت أقضيها ملتصقا بجدار مقهى «مكي الرباح» رحمه الله.

لأنه المقهى الوحيد في مدينة دير الزور. حاضرة وادي الفرات. إحدى الولايات السورية التسع الذي يوجد فيها مذياع، وكذلك فيه مرحاض يمكنني من تفريغ ماء مثانتي. الرواد يلعبون أو يتصايحون صخب قاتل، أماحين تبدأ نشرة الأخبار. فلا نأمة ولا حركة، ينصتون باهتمام. ولا سيما إذا كان الخبر يتعلق بالثورة الجزائرية. حيث ينطلق صوت المذياع :

- هنا دمشق، سيداتي، آنساتي. جاءنا هذا الخبر العاجل من الجزائر : تمكن الثوار الجزائريون من إسقاط طائرة حربية فرنسية، احترقت في الجو، وقتل طياروها ،

ما إن ينتهي الخبر. حتى تنطلق الحناجر بالهتاف :

الله أكبر، سلمت أيديكم أيهاالأبطال الثوار. لكم المجد، وللعدو الخزي والعار، تستمر الهتافات تعانق السما ء. يعيش. يعيش، يعيش، يا يا، ثم تعود دورة الحياة، أخلد إلى الراحة في زاوية، لا أحب أن أسمع أي صوت،

صوت المذيع القدير أحمد سعيد يدوي،يملأ النفوس حماسة.

هنا صوت العرب من القاهرة يخاطبكم.

الجزائر، نصب الثوار الجزائريون كمينا لدورية مدرعة فرنسية. دمروا ست دبابات للعدو. هرب الباقون كالجرذان المذعورة مخلفين العديد من القتلى والجرحى. كما غنموا كمية كبيرة من العتاد الحربي. فقد الثوار شهيدين. تحيا الجزائر،

تلتهب الأكف، تتجدد التظاهرات التلقائية، يصاب الجميع بالوجد الحميمي،

الوجد الحميمي تلبسني سا ءلت نفسي: يا أبا بكران، أنت الآن في مدينتك التي تبعد آلاف الكيلومترات عن الجزائر، لماذا يتلبسك هذا الوجد الطاغي؟ ما هو السر الذي يشدك إلى الجزائر؟

أجيب ببرا ءة: البعد الجغرافي لم يمنعنا من التلاحم مع الثورة المظفرة، لأنها ثورة كل العرب. لأنها متجذرة في نفوسنا،

البعد الجغرافي لم يحل بيننا وبين التطوع التلقائي بالمهج والنفوس. لم يمنعنا من التبرع،

التبرع، بماذا تتبرع يا هذا وأنت ! ما يزال صوت صديقي يصلني عبر مكبر الصوت في الجامع الحميدي القريب، فلأذهب إلى مركز التبرع في هذا المسجد،

جررت قدمي جرًّا، الداء يستشري ويتسع، يدي مازالت تتحسس خاصرتي، جسر المحبة والوجد مازالا متواصلين، حييت الرجل الذي ما زال يدعو المواطنين إلى التبرع للجزائر، حييته، رد على تحيتي. كأنه لا يعرفني، واصل نداءه،مددت يدي إلى إبطي أخرجت صرة، بدأت أفكها بأسناني. أخرجت ما بها من نقود قدمتها إلى الصديق الذي قابل تحيتي ببرودة. ناولته المبلغ. ويدي تمسك خاصرتي. قلت له :

- تفضل يا ولدي، خذ، إنها كل ما أملك. ادخرتها لكي أجري عملية جراحية، مثانتي ملتهبة جدا ، حالتي تتدهور !

تفحصني الرجل. شهق، هتف مستغربا :

- من العم أبو بكران، هذا أنت أيها المناضل الشهم ! هذا أنت يا فخرنا. أعد نقودك، اجر العملية الجراحية، صحتك تهمنا كثيرا !

رددت بأنفة المطعون :

- يا بني، كم هو عظيم. أن أموت وتحيا الجزائر !

اختطف المكبر مجددا وهو يشرق بدمعه، أخذ ينادي بحشرجة مبحوحة.

- لن تموت أمة بها رجال مثل أبي بكران، ستنتصر ثورة

الجزائر، ستنتصر ثورات العالم في سبيل التحرر والاستقلال، ها هو قدوتكم أبو بكران. إنه الرجل الذي شارك في صنع استقلال سورية، ها هو اليوم يشارك في صنع استقلال الجزائر.

ما هي سوى لحظات حتى غص المسجد الحميدي. بالمتبرعين والمتبرعات، ما من أنثى تركت قرطا في أذنيها أو إسورة في معصمها، تكدست الأموال، تكاثرت الألبسة والأغطية، صارت أكواما، تنامت سامقة كما جبال الأوراس. بدوت صغيرا بجانبها، نفسي كانت تغلي من الداخل كبركان، بركان الوجد يتنامى.

تنامى إلى أذني صوت هرج ومرج، دلف إلى المسجد. وإلى المدينة ليقدم ما تجود به نفسه، وليتفقد عمليات التبرع.

صديقي صاحب مكبر الصوت استقبل الوالي. شرح له قصة تبرعي، انفعل الوالي. أسرع إلي وراح يحتضنني. خاطبني وهو يكاد يعتصرني:

ليراتك يا عم ستثمر، ليرات أبي بكران وثيقة تاريخية ناصعة في جبين أمتنا. تا الله لن أبيتنّ الليلة. إلا وأدخلتك المستشفى. ستنجح عمليتك الجراحية. كما ستنجح الثورة الجزائرية، وسأخصص لك مرتبا. غادر موكب الوالي المسجد. وسط الجماهير الحاشدة التي تكونت، فكونت مظاهرة عارمة لنصرة الجزائر. وثورتها المظفرة.

اندسست بين المتظاهرين، نسيت أول مرة آلام مثانتي، غبت وسط الهتافات

- تحيا الجزائر حرة مستقلة.
- الموت للاستعمار الغاشم.
تحيا ثورة أول نوفمبر الخالدة.

امتحان في تجاويف الذاكرة

عندما تنداح فقاعات داخل الذاكرة، يتحرك القلم ! يسيل لعابه. ينغرس في مسام الورقة المسترخية بين أناملي. يحدث فيها تجاعيد وتجويفات وانكسارات حتى التمزق!

الورقة تتثنى تحت الضغط المتواصل، ترتجف!

القلم يزداد صريرا ،

الورقة تتلوى ألما ، تموت كمدا !

القلم يزدادضغطا وحقدا !

فقاعات الذاكرة ما تزال تمور، تشع ألقا ، تغزو كفارس يكر بمهارة عنترة ومراوغة خالد.

الورقة، ما تزال تتجرع المداد المسفوح عليها ، المتوغل في أحشائها ،كما الوباء يجتاحها بلا جواز سفر !

تصيح الورقة مستنجدة !

الذاكرة تزداد عطاء!

القلم يزداد مضاء،

الأفكار وحدها تزداد إشعاعا بلا توقف أو ملل.

فجأة تمر فقعات الذاكرة. تسرح، تنحرف إلى عالم آخر !

العالم الآخر يجتر مغنطة المخ والمخيخ والبصلة السيسائية !

يتوقف العالم الآخر عن الدوران ! تنحسر كل أمواج المد والجزر،

تأخذ الخطوط البيانية مسارها حثيثة. من نقطة الصفر، مرورا بالشعاع، حتى نقطة الصفر غير المتناهية ! وما أن تصل إلى القمة حتى تنكسر، ثم تعود، بفعل منعكس شرطي إلى نقطة البداية.

نقطة البداية كانت قد ابتدأت قبيل دقائق، قبيل دخولنا قاعة الامتحان، كان فارع الطول، جميل الطلعة، شاردا، رأيته من بعيد وهو يمسح كل الاتجاهات. حتى الفرعي منها! يلفه القلق ينظر إلى ساعة يده مرة، وإلى القادمات مرة أخرى (فيرتد بصره وهو كليل) !

ارتسمت على وجهه بقع زيتية، متباينة الألوان، من يراه يخاله لوحة تشكيلية ساحرة. مازالت ريشة الرسام لم تضع عليها لمساتها الأخيرة، بدا شكله مضحكا!

دنوت من اللوحة المسمرة، حين لمحني امتزجت ألوانه الزيتية وانسجمت. تعاملت مع بعضها ! عاد بوعيه، عاد إلى ساحتي وحدي، بعيدا عن بحيرة الزميلات اللواتي يتهيأن لدخول قاعة الامتحان.

افتر ثغره عن ابتسامة مضطربة، تحمل ألف معول ومعول !
المعاول، أخذت تنبش نبشا متعمدا في عمق نفسي الولهى!
تبسمت ابتسامة مضطربة، تمتمت، ارتعدت، انقلبت لوحة تشكيلية مثله!

رأيت يديّ راقدتين بين يديه!

لا ندري كم أمضينا ، يدا بيد،لا نأمة ولا حركة !

لم نبال بالحشد الهائل قربنا من ممتحنين وممتحنات. تخيلنا الدنيا لا تتسع لغيرنا ، آدم وحواء وحدهما في فردوس علوي !

ياه، تبًا لك أيتها الذاكرة المتعفنة! ما جعلك تشردين. في هذه اللحظات الحرجة؟ لم أبعدتني عن جو الامتحان ؟!

كل من حولي في القاعة يفرغ حقده على ورقة إجابته.

الأوراق مازالت تعن وتئن تحت صرير أقلامنا!

أنا مازلت أعن وأئن، تحت صرير المخدر البوذي. في محراب بوذا!

فسيفساء الذاكرة تنداح ثانية، تعيدني إلى ساحة وعيي. تأمر قلمي أن يبدأ معركة مع الورقة المسترخية أمامي. لا أدري إن كانت هي الأخرى مازالت متأثرة بسحر بوذا!

قلمي، ينصاع للأمر، يبدأ المعركة مجددا.

راحت الأوراق تتكاثر وتتكدس أمامي. لم أعبأ باستغاثتها. أو عويلها. !

الحجرة العشرون يفوح منها عطر زيد !

عطر زيد مازال عالقا على مسام يدي، نافذا في متاهات حاسة شمي. إنني الآن أشم عبقه، أتراه هو الآخر يشم عبقي ويفكر بما أفكر!

أنا الأخرى حضرت إلى قاعة الامتحان وأنا مضمخة بالطيب، تزينت كعروس مكللة تقاد إلى عريسها، جعلت أنشر رذاذي السحري لأوقعه في شباكي. !

أعترف. أنني حضرت إلى الامتحان بثلاثة وجوه :

الوجه الأول :

وجه أنثى يانعة حان قطافها، تنتظر الفارس الذي يتذوق الثمرة الشهية !

الوجه الثاني :

وجه عاشقة، أحبت زيدا وزيد أحبها، وليس لهما من متاع سوى الحب !

الوجه الثالث :

وجه طالبة بريئة. أمضت سنين بين عرق وجد من أجل هذا اليوم المشهود.

أترى الحجرة العشرون تفكر بما أفكر؟ ألها الآلات ذاتها؟ وتحركها بالاتجاه ذاته؟ وتحمل الانفعالات ذاتها؟ وتتبنى المشاعر ذاتها ؟ أم !

مضيت في تحليلي الاستعراضي محاولة التوفيق بين امتحانين: امتحان العقل وامتحان القلب .

حاولت إيجاد صيغة توفيقية بينهما غير أنني فشلت أيما فشل !

نسيت الورقة المسترخية التي تناديني، نسي القلم الأمر العسكري. رحت أحلم ! صوت دقات أصابع الأستاذ على منضدتي أعادني إلى جو الامتحان.

لكأن الأستاذ -بحكم تجربته- لاحظ شرودي، قرأ على قسمات وجهي ما يعتمل في قرارة نفسي من انفعالات شتى، كالغضب والهيجان والاحباط وو.

كنت تلك اللحظة أضحك أتبسّم، أعبس، أقرقع أصابع يدي ببعضهما، أحك شعري أضرب جبيني، أسرح، أضحك، كنت كتلة من الانفعالات المتباينة، لدرجة أن عالم النفس يصعب عليه تشخيص حالتي النفسية!

لكي يوثق الأستاذ حكمته، ويعيدني إلى ساحة الإدراك الكلي، دنا مني. همس في أذني: أكتبي يا آنسة، إنك شاردة !

ضربت صدغي بجمع يدي !
ألغيت كل تجاويف الفراغ.
شطبت معادلة العقل والقلب،
عطلت قلبي !
عدت إلى امتشاق سلاح العقل،
عادت فقاعات الذاكرة تنداح.

عادت المعركة تستعر بين القلم والورقة. !

عاد الأنين والنواح إلى الأوراق، دونت عليها معلومات سنة دراسية كاملة. حملتها كل معرفتي. الكامن منها والبارز. !

سلمت أوراق الثروة المتبقية لي ذاك اليوم. خرجت أنتظر زيدا في الزاوية الصباحية، وجدت زيدا ينتظرني. أسلمته يدي. رحنا نتلو تسابيح إلياذة حب. لا أردي إن كان هذا الحب هو بداية أم نهاية لمعادلة جبرية مجهولة الحدين! مجهولة السين واليقين!

أسقطت كل الاحتمالات والمتراجحات !

ما عادت ملكاتي العقلية تدرك سوى التجذر في بوتقة الحب. ضاربة كل النواميس، متجاهلة كل الأعراف والتقاليد. لم أفطن حتى عن سؤاله،ماذا فعلت في الامتحان ؟

لم أسأله هو الآخر !

كانت كل أوصالنا معطلة من الخارج !

في الداخل كل المشاعر متأججة حتى النخاع !

تخطيط وتخطيط

الساعة الجدارية، يترنح نواسها ، يتمايل كراقصة مخمورة !

الأم فرغت توّا من إعداد الطعام. إبنتها انتهت من تنضيد الأطباق ووضع المناديل. ورصف الملاعق التي كانت تفغر أفواهها ، كما أفواه الأسماك الجائعة! الشوكات الحادة المدببة بدت كأسنان تمساح، يستعد للغمز والغرز.

زجاجات الماء المثلج. اشرأبت أعناقها وهي تنضح عرقا .

أول الوافدين. الصغير أحمد الذي ألقى نظرة خاطفة فاحصة على ما حوته المائدة. لكن الوضع لم يعجبه تماما ، صاح محتجا :

ليلى، إنك تتعمدين إغاضتي ! أين المشروبات الغازية ؟ (القازوز) ، صدقيني يا ليلى، حين يفتح فم الزجاجة ويحدث انفجارا أطرب أيما طرب ! ويزيدني شرها ونهما !

دخل الأب وهو يلهث. نظر إلى ساعة يده. توجه إلى المغسلة. حتى يزيل ما علق على يديه من أتربة أو جراثيم، لكثرة ما تداول النقود بيديه. كان يعدها ويرتبها ، يدسها

في الخزنة. يمدها إلى زبون ينتظر، يحاسب ذا وذاك وتلك ! غير أنه هنا في داره. لا يحاسب أحدا ! وحده الذي يُحاسب!

اتخذ مكانه على المائدة. أخذ يلعن المدير وأبا المدير، لأن المدير بقي يراقبه ويترصده، حتى آخر لحظة. لكنه تبسم وهو يخاطب زوجه متباهيا: لا تخشي على زوجك ! احتلت على المدير، انسللت من الباب الجانبي قبل نصف ساعة دون أن يراني!

لم يضحك أحد من طرفته. لأن الجميع منشغل بقرقعة أمعائه !

الإبن الكبير، دخل مهرولا، جذب كرسيه بفمه، لوحه في الفضاء، حمله بأصبع واحدة، ألقاه بقوة، كما يفعل «قبضايات الكاوبوي» الأمريكان حين يتعنترون في أفلامهم، وراح هو الآخر يلعن المدير وأبا المدير، لأنه يتشدد في مراقبة الموظفين حين دخولهم وحين خروجهم،

بينما كان الجميع منشغلا دخلت، الإبنة الكبرى. وهي مرحة سعيدة، اعتذرت لتأخرها قائلة :

سامحوني لقد تأخرت عليكم قليلا، قالت هذا وراحت تتفرس وقع كلامها عليهم !

قاطعتها أمها معقبة :

– يلعن أبو المدير! لا بد أن يكون قد راقبك وأخرك أنت أيضا !

- لا يا أمي ! إن مديري ممتاز، لقد هربت قبل الانصراف. بساعة. ستون دقيقة، وكذا ثانية! عرجت على الخياطة. تأخرت هناك! لا تظلمي المدير كم هو لطيف هذا المدير ! إنه يعزني ويكرمني ولا يحاسبني !

رد عليها أخوها « المتعنتر »:

ما معنى أن مديري يحاسبنا ويراقبنا كالمرصد الجوي؟

تبسمت أخته بخبث وأجابته:

- الناس أجناس ! والدنيا حظوظ !

أقبلت الأم في هذه الآونة تتهادى. تحمل قصعة كبيرة مليئة بالطعام، الذي كان يشبه جبلا غرست فيه أشلاء اللحم المحمر.

ليلى الإبنة التي ما انفكت تساعد أمها، جا ءت تمشي متثاقلة، وهي تحمل قصعة أخرى ملأى بالمرق، كانت تسير متمهلة. لأنها كانت تخشى أن تتكرر مأساة الأسبوع الماضي. يوم تعثرت بفردة حذا ء فوقعت، واندلق المرق. لكن الواقعة، وقعت على رأسها! كل ما كانت تفعله هو الاحتراس والدعا ء المتواصل: يا رب سترك ! يا رب لا تجعل إخوتي يشمتون بي مرة ثانية !

وضع الطعام فوق الخوان. ابتدأت الأم توزع الحصص بالعدل والقسطاس. لأنها خبيرة برغبات الجميع، قدمت للأب فخذا مكتنزا، لأنه يحب الأفخاذ ! وللإبن الأكبر. القلب والكبد. لأن قلبه مكتو وكبده ملتهب، أما الصغيران فكان نصيبهما

الجناحان، احتفظت لنفسها بالصدر لما يحتويه من خبايا! وخفايا. ولأنها مغرمة بالصدور.

قبيل أن يصل الطعام إلى الحلوق ابتدأت الخلافات على نوعية الأكل!

هذا لا يحب «الطعام». ويفضل عليه «الدولما» المحشي !

تحسرت الكبرى وقالت «آه، لو كان كذا» !

احتج الصغير واعترض أيضا لأن المائدة خالية من الحساء وطالب ببرمجته.

بقي الأب صامتا، لأنه لا يريد أن ينتقد ذوق زوجه من جهة، ولأنه يريد أن يعطي أبناءه درسا في القناعة، وحمد الله على ما أعطى وما قسم من جهة أخرى. لذلك راح يسكب الطعام وهو صامت، وجعل يأكل بهدوء،

الأم اكتفت بتلقي الاحتجاجات رشا ودراكا. تابعت المضغ، كأنها لم تسمع كلمة احتجاج واحدة!

أراد الأب أن يضفي جوا مرحا لكي يسود عائلته «الاعتراضية». فتقطع الطريق على المحتجين والمحتجات. لذلك وجه إلى زوجه سؤآلا مباشرا :

- ماذا ستعدين لعشاء هذا اليوم ؟

وجدها الأولاد فرصة مواتية للتدخل السريع. ولكأني بهم قد أعطوا الضوء الأخضر. وابتدأت الاقتراحات تتوالى، هذا اقترح مخططا زمنيا يصنف الأنواع والألوان حتى ! ذاك حددها

على مزاجه، وعلى مقاسه! تلك أرادتها عصرية! وذلك أحبها تقليدية !

جرت مباراة تقديم الاقتراحات على قدم وساق، اقتراحات وبدائلها، احتجاجات ونقائضها !

ضحكت الأم، ردت في برودة دم تفوق برودة دم الإنكليز !

– ما رأيكم لو أننا افتتحنا لكم مطعما يرضي جميع الأذواق ؟

ضحك الجميع. وكأني بهم لم يسبق لهم أن ضحكوا طيلة حياتهم ! زال التشنج عنهم. أرادت الأم أن تستغل العامل النفسي الذي تلبسهم آنيًا. توجهت إلى المذياع، ضغطت على زر الكهرباء، همهم ودمدم. انسابت ألحانًا عذبة تهدئ الأعصاب، أعقبتها أغنية رائعة لوردة الجزائرية، فتعالت صيحات المطيبين «بص شوف وردة بتعمل إيه». امتعض الإبن الأكبر، وصاح بانفعال: دعونا من وردة الـ... حركي المؤشر يا أمي نحو القناة الثالثة، أهوى أغنية أجنبية، مرحة، تفتح الشهية، وتجعل الواحد منا يرقص طربا. فيزهو ويهضم طعامه، كم أتمنى أن تكون لمايكل جاكسون !

احتج الصغير قائلا: أنا أكرهه، أستاذنا قال لنا، مايلك هذا صهيوني،

– لا يهمني، كائنا من يكون ! أنا أحب صوته وأداءه !

الإبنة الكبيرة، تمنت أن تكون أغنية للعندليب الأسمر،

الوسطى قالت، أما أنا أفضل أغاني المطرب المحبوب. «فريد الأطرش». تباينت الرغبات، استمرت المشاداة، عادت الخلافات،

جاء فصل الخصام من المذيع. حين أعلن عن نشرة أخبار الساعة الواحدة:

- ساعتنا الواحدة ظهرا، إليكم النشرة الإخبارية الثانية:

جاء في خبر عاجل نقلته وكالة الأنباء العالمية أن إسرائيل تخطط لإطلاق صاروخ اعتراضي متطور. ويعد من أرقى وأدق ما أنتجته التكنولوجيا الحديثة. وقد تكفلت الولايات المتحدة الأمريكية بتغطية النفقات !

لندن: يخطط أمير عربي لشراء يخت أحد لوردات بريطانيا.

باريس : يخطط أحد الأثرياء العرب للانفصال عن زوجه الفرنسية مقابل أن يدفع لها نفقة تقدر بعشرين مليون فرنك فرنسي مع يخت خاص. وفيللا في باريس وأخرى في سويسرا!

لندن مرة ثانية. جاءنا هذا الخبر العاجل نقلته وكالة رويتر للأنباء. أن شيخا عربيا يخطط لشراء ناد رياضي في إنجلترا. بمبلغ بسيط قدره : مائتي مليون دولار مقابل أن يحمل النادي اسم الأمير الرياضي الشهير. !

- الريفيرا، أعلن عن مفاجأة جديدة تقول : إن بعض الفيللات التي لم يشترها «المليوردات» العرب معروضة للبيع

حاليا. وسرعان ما خطط عشرات منهم ليغنموا بهذا الكسب العظيم، وقد وصل فعلا عدد كبير من أمراء الأنابيب للفوز بهذا الكسب العجيب!

القدس : يخطط الجياع العرب المحاصرون في مخيمات العدم لإيجاد طريقة يفكون بها الحصار المضروب حولهم. وإيجاد وسيلة يؤمنون بها قوت يومهم !

السودان، الصومال، يخطط الناس هناك لإيجاد طريقة يستجدون بها أكف المحسنين.

القاهرة : تخطط الجامعة العربية، لمؤتمر قمة جديد. مرخص له من البيت الأبيض،

شعار مؤتمر القمة هذا : «تيتي تيتي، مثل مارحت، مثل ما جيتي !»

مازالت الأسرة تخطط. ومازلنا نخطط، حتى تحمر بعض الوجوه فتتوقف عن التخطيط العتيد. وتتقوقع شهرزاد. فتسكت عن الكلام المباح !

وخزات غير مؤلمة

من هو ربك ؟،

ما هو دينك ؟،

من هو نبيك ؟،

ركضت على الصراط بثبات عجيب قطعته بسير غريب. ما أن وصلت باب الجنة الرحب، وأمنت ألا سلطان علي بعد اليوم، حتى شعرت أن عاصفة من الانفتاح والانطلاق والتحرر تنتابني، كأني طائر أفلت من سجنه، جعلت أصيح كالمجنون : يعيش يا يعيش. يعيش. يعيش فلان ! تسقط الأنظمة كذا، تعيش الأنظمة كذا ! يعيش الملاك رضوان، يعيش، يعيش. !

لا بد أن (رضوان) قد سر ضمنا ، إن لم يكن قد أدرك أنني أستميله بهذا الإطراء أو أشتريه بهذا الثناء. كل ما أعلمه أنه أشار بالسكوت وألا أحدث ضجة حرصا على راحة رواد الجنة السعداء.

على الفور أجبته : أرجوك أيها الملاك العظيم والحارس الهمام : قلتم في الجنة يتمتع الناس بكافة الحقوق، يمارسونها بمنتهى الحرية، وها أنا أمارس بعضا من هاتيك الحقوق.

- هذا صحيح غير أنه عليك أن تعلم أن المغالاة في استعمال الحقوق يؤدي إلى الشطط أحيانا ، أو يقود إلى الفوضى أحيانا أخرى!

قلت بانفعال: مهلا سيدي. أنا ماشقيت للوصول إلا طمعا في استعمال حقي. أنى أشاء وكيف يروق لي، فعلى سبيل الاستيضاح :

- هل تمنعون هنا حق الكلام ؟.

- قطعا ،لا.

- وحق النقد ؟.

- وأيضا لا.

- وحق النشر ، والتظاهر ، والتدين، وحق كذا وكذا ، ؟

- على رسلك يا صاح -أجابني الملاك نحن نمنح هنا الحقوق كاملة دون أي اعتراض إننا نحتفظ بحق واحد بسيط.

- ما هو هذا الحق الواحد البسيط ؟

- حق نقض أي حق من هاتك الحقوق !

ابتلعت المقولة، لم أعترض لأنني استمرأت في الحياة الدنيا . وطبيعتي أن العادة تطاردني حتى يوم البعث. !

فجأة سمعت صيحات تنبعث، أصخت السمع، اتجهت نحو مصدر الصوت، فإذا بي أمام ملعب، فسيح الأرجاء مترامى الأطراف، وهو على رحبه قد غص بالجمهور. حتى أنك لا تجد موطئ قدم، رغم ذلك تلاحظ النظام المحكم، حماس دون انفعال، انفعال دون تشنج !

الأمر الغريب الذي شد انتباهي هو : أن الكرة وسط الملعب، اللاعبون يا صديقي وسط الملعب أيضا! كل أخذ مكانه المناسب له، واختار دوره الملائم. كل يتحرك بحسب طاقته ويعمل بحسب قدرته !

المتفرجون وحدهم خارج الملعب. لا يحشرون أنوفهم بما ليس لهم به علم، لم أشاهد أحدا يمنع دخول الكرة في الشباك عنوة، لم يعارض أحد أحكام الحكم قط !

- وهل يجري عندكم العكس؟ سألني الملاك المرافق !

- أجل يا صاحبي، فحين كنت في البعيد البعيد، هناك في الدرك الأسفل، في مكان يسمونه الأرض، هناك في الأرض يا صديقي الملاك تجد اللاعبين الحقيقيين خارج الملعب، والفوضويين يتعاورون الكرة بلا ضابط ولا نظام !

لم ينبس الملاك ببنت شفة، اكتفى بهز رأسه !

في المساء قادني مرافقي إلى ناد للتسلية، فرحت أيما فرح حين أبصرت الناس متحلقين حول مناضد الشطرنج، يمارسون هوايتهم. وهم غارقون في التفكير ورسم الخطط. لدرجة أن لا أحدا منهم أعارنا اهتماما بل أنهم لم يشعروا بوجودنا !

رجوت المرافق أن يأمر بإحضار رقعة شطرنج لأمارس هوايتي المفضلة، زد على ذلك أنني لم ألعبها منذ أماتني الله جلت قدرته،

قبل أن أنهي رجائي، رأيت علبة الشطرنج تفتح أمامي تلقائيا وانتظمت الأحجار وحدها !

طبعا لم أستغرب هذا التطور التكنولوجي الفذ لأنه من قدرة واحد أحد !

ابتدأت ألعب جولة مع مرافقي، فإذا بهم يلعبون بغير طريقتنا ! البيادق لا تدافع عن الشاه، لا يوجد من يقول : «كش شاه».

قرأ صاحبي علامات استفهام كبرى على تقاطيع وجهي فقال : كيف تلعبون عندكم ؟.

قلت والحسرة تلفني : الصراع عندنا بين البيادق، الجهد والعرق من البيادق، الموت للبيادق، أما الشاه فهو شاه دوما!

في الصباح -كالعادة- الجو معتدل، نسيمات الهواء تداعب الأجفان الحالمات، تغريدة البلابل تحرك النشوة في الأوصال، تقدم الملاك المرافق حيا تحية الصباح. قادني إلى الأروقة، التي تجد فيها كل ما تشتهيه نفسك، من لذيذ الأطعمة والخضر والفواكه واللحوم، أكوام وأكداس رصت بعناية. وصفت بتنسيق، أشار إلي المرافق أن أتناول ما أريد، مددت يدي إلى جيبي لأسدد الثمن، عرف المرافق قصدي، ضحك حتى

الإغماء وقال : إن الأطعمة هنا بالمجان غير أنني أحذرك من مغبة الإخلال بالنظام، إنك تقدمت قبل غيرك لتناول الخبز، الخبز كثير ومتوفر، فلو فعل الجيع فعلتك لحدثت أزمة. فوضى تضرب أطنابها ! هل تحب أن يتدافع الناس بالمناكب من أجل الحصول على لقمة عيشهم. إن المقام في سقر خير من اللقمة مع المهانة.

ضحكت أنا هذه المرة وقلت له: أعيذك أن ترى ما يحدث عندنا!

تساءل صاحبي مشفقا، ألا يوجد عندكم نظام؟

قلت: يوجد عندنا نظام مسطر على الورق فقط، أما عملاً فنحن أناس فوضويون. استحلفني صديقي الملاك أن أقص عليه قصة النظام عندنا.

قلت: على الرحب والسعة، النظام عندنا من صلب معتقداتنا نؤمن به ولا نطبقه. النظام عندنا من أسس قوانيننا، نلزم به ولكننا نخرقه. من أراد أن يطبق النظام راح ضحيته دون أن ينال بغيته !

قال لملاك : إن الله طهر أرضكم وأنزل الأنبياء عليها فسميت مقدسة وسميتم مدنسين !

أجفلت من انفعال الملاك، خفت أن يشي بي إلى الباري فأطرد شر طردة، لكنني تجلدت لأني تذكرت أنه لا توجد وشاية هنا ولا وشاة. جعلت آكل طعامي هنيئا بعيدا عن أعين الرقباء.

بدأت أفكر في زوجي، أين هي الآن ؟. إنني بحاجة إليها، بحاجة ماسة إليها جدا ! أين تقيم ؟. حسنا سأتوسط من أجل إحضارها، سأتبع أية وسيلة ولو كانت الرشوة. ! ولكنني حين فطنت إلى وجودي عذلت نفسي لأنني لم أستطع أن أتخلص من رواسبي المتعفنة.

إذن ما علي الآن إلا أن أستعمل حقي فأطلب إحضار زوجي،

و بينما كنت أتخيل زوجي ومكانها، وعما إذا كانت هي الأخرى قد تذكرتني وحنت للقائي، أم إنها دعت ربها ألا يريها وجهي مرة أخرى. فإذا بالملاك ينتصب قبالتي، ويقول لي :

إن الرب سمع مناجاتك السرية له بشأن حاجتك لزوجك، فأعلم يا سيد: أنه ليس بالضرورة أن يحشر الأزواج مع بعضهم البعض، فطيبة أحد الزوجين أو صلاحه لن يكون وسيلة للتخفيف من ذنوب الآخر، فإن كنت بحاجة إلى شريكة حياة، فما عليك إلا أن تغمض عينيك وتتصور شكلها لتجدها قدامك.

قلت: اسمع يا صاحبي أنا الآن مدقع، لا أملك المهر لزوجة جديدة، وبخاصة أن كل الأسعار بارتفاع، ثم أنني غير مستعد لأن أرهق نفسي بالديون لأدفع مصاريف ولائم، سيارات، مقدم، مؤخر، حين الطلب. وبعد ذلك يأتيك الأولاد وكلفتهم وو. !

قهقه الملاك وقال : كم تمتعني أخباركم يا آل المعمورة، وأسر كثيرا لبلاهتكم وسذاجتكم، إذ أنكم تعقدون أموركم وتنغصون

حياتكم فتحيلونها جحيما. تعيشون في دنياكم بجحيم. تنقلبون بآخرتكم إلى جحيم أما هنا فكل شيء بالمجان. الأمور سهلة بلا تعقيد، ما عليك إلا أن تتخيل زوجة تروق لك لتجدها بأحضانك دون كلفة، دون شروط، بلا مقدم أو مؤخر، فما جئتم إلى هنا إلا لتتنعموا فيها خالدين منعمين.

آه لو يعلم الناس، آه لو تعلم الزوجات !

- قم يا رجل، حان وقت العمل، انفض الكسل عنك، هيا قبل كل شيء اذهب أجلب الخبز للأولاد لم يفطروا بعد ! أردت جذب الغطاء ولكن إلحاح الزوجة جعلني أنتصب واقفا فأحمل بيدي القفة وأنا أردد، آه لو تعلم الزوجات، آو لو يعلم الناس !

الحقول البيضاء

حين كنتُ، كنت.
حين كنتِ، كنتُ.
أماحين دارت الأرض عكسا ،
فما كنتُ، وما كنتِ،
(كنتُ) فعل ماض ناقص، تاء فاعله مرفوعة.
(كنتِ) فعل ماض، تاء فاعله مجرورة.
شتان بين الرفع والجر !

حين كنتُ، حين كانت تائي مرفوعة. انضويت تحت جناح التاء المرفوعة. سلطت أسلحة الأنوثة الماضية، استسلمت تائي، لأسلحتك الماضية. وقعت !

يوم ذاك كنت أطوع من بناني، كنت تتعقبين ظلي.
في لحظة جنون السقوط، أضحيت بلا ظل، سرقت ظلي !
امتصصت رحيقي العذري، براني الشوق، صرت بلا ظل.
بلا فيء !

همتُ حتى أهميت، كبر همي بهيامك.

تكونت من الهم فقاعات، جعلت تطفو (كثغاء أحوى).

اكتسحه السيل، راحت الفقاعات تسابق الأمواه الجارفة.

قبل أن ترتطم بالأجسام الصلبة، تراقصت، لأن الزبد لا يصمد أمام الأجسام الصلبة.

ازداد ضغط دوي الانفجارات في داخلي، تشبب، تناثرت أشلائي شلوا شلوا. انغرست بجحور العدم ! يوم كنتُ، كنتُ أتمسك بتائي المرفوعة. التي رفعتني، ما كانت تنتابني حالات تهويمية. لذلك استمرأت الارتفاع بلا ضابط. حتى ألفيتني، في خانة الخيلاء أختال تطاولا ! ابتدأت أرقى السلم قفزا. متشبثا بتائي المرفوعة التي مازالت تشكل قوة دافعة،، تغذ السير، تدفعني!

آنذاك، برزت تاؤك المجرورة، انجررت أكثر حتى انجرفت. وانجرفت إثرها إلى ساحتي الممغنطة، جاذبيتي ممغنطة كما الأرض التي أطأ.

المغنطة، أسالت لعابك الجسور. جذبتك إلى ساحة متوترة. سقطتِ تحت أقدام بوذا، كنت له جسدا (اكتبلا زمنيّا). يتلوى، يتثنى، ركع بوذا، ترك آلهته فعبدك وحدك.

بوذا كان ذكيا. سبر حقيقة تائك حين ألفاك تتثنين تحت أقدامه.

لم أكن أحسن حظا من بوذا .بوذا حين أصيب بدا ء الشبق. عربدت أنا لشبق بوذي. إذاك تاهت تائي تيها، انتفضت فخارا، ما عادت السماوات تتسع لنشوتي !

ودجاي انتفخا، صارا كبطن امرأة حامل بأكثر من توأم !

تاؤك جسورة، كانت تجوس الخبايا. لها قدرة عجيبة على الاكتشاف والاستكشاف، تاؤك، كانت تقتنص أدق الأسرار. استطاعت الإمساك بمستمسكات ثبوتية. ما توصل إليها غيري، عثرتِ على شعيرة بيضا ء في غابة مفرقي، السودا ء الكثيفة.

تأكدت توا . أن تا ءك عالمة نفس ماهرة. لقد اكتشفت أسرارا ما استطاع حلاقي الماهر اكتشافها رغم أنه بارع في النتف والجز. ومنقبًا عظيمًا عن البيضاوات المتطفلات !

يومها لم أكترث كثيرا بالغزو الأبيض. لم أدرج بقائمة شارات المرور الضوئية الرادعة، أهملت الضوء الأبيض. ما حسبته ماجنا يستبيح المحرمات !

ياالجسارة هذا الغزو المتآمر ! يالوقاحة الغازي العنيد ! إنه لم يتوقف عن الزحف المعربد الطاغي ! يا للجسور ! مكانك! قف !ورا ء در !

الجسور متآمر، صلف يتقن فن التوغل. كلّما ازداد البياض توغلا، الجسور صار يجول في المتاهات بلا جواز سفر. لم تثنه اللوحات الاعتراضية، !

الحقول البيضا ء تستشري، ما عادت حيل الحلاق تفلح. إن جز واحدة نمت عشرة، عشرات تتبع عشرات بحسب سلسلة هندسية. تمر باللانهاية، الحقل الأبيض يزداد انتشارا كما الوبا ء.

حفريات كالأخاديد. توطنت بعمق الدهر المقهور. تغضن الجبين ما عاد سرا، اكتشفته تاؤك بخبث المتشفي، صار جبيني متكسرا كما صفحة الزمن المتكسر.

حاولت الاعتراض. لم تجد صيحاتي الاعتراضية، ولا (الفيتو) أفادني !

تمردت على فعلك الماضي الناقص. تقدمت بعرائض احتجاجية شديدات اللهجة. طالبا حقي باستعادة مكانة تائي. (وأي حرج إذا طلب حقي حقه ؟!)

انقلبت موازين القوى، سادت الهيمنة، تغيرت النواميس. خرقت القوانين فأسقط حقي !

تجددت عنترياتي المكتوبة، ابتدأت ألبط، لبطات طائشة. كما سهمي. أضحى الصراخ عبثية ممقوتة. صارت دروبي موحلة آسنة تعترض تقدمي وتجهض شكواي.

الانفلات صار قيدا مقيدا، عادت الموازنة ترسم موازنة الابتزاز، تخطط لمعادلة جديدة مستندة إلى أهزوجة قديمة بالية تقول :

حين كنتُ، كنتِ،
و حين كنتِ، كنتُ،

انسحبت تائي، صارت تا ء مجرورة، تاؤك مرفوعة. انخفض مقياس حرارتي نحو أسفل السافلين. المؤشر يشير إلى تجمد ثلجي، تخطى الصفر الناقص. تجمدت خلايا الخيلاء. انتزعت كل أعمدة خيامي. ما عاد بمقدوري التشبث بأرضيتي الماضية. ولا الإمساك بتلابيب الخيمة المعمدة. التي ابتدأت تهتز تحت إصرار ضربات الأعاصير الفوقية العاتية.

انتشت تاؤك المكسورة، صارت تتحرك كما دمية لها رأس لولبي يتحرك بكل الاتجاهات. صارت تائي. تا ء للمراثي، وتاؤك تفننت بحفر الرموس، لقد حملتِ المعول، رفعتِ شعار الحفر والطمر. ما عادت إرادتي تقوى على إرادة التمرد الضال المضلل وبتعبير بلاغي :

صارت تاؤك مرفوعة،

صارت تائي مجرورة،

شتان بين الرفع والجر!

حين حمي الوطيس، ودخلت التا ءان في حلبة النزاع المسلح، تدخلت (كان) بفعلها الماضي الناقص لعلها تفك الاشتباك. اقتربت من تائي المسحوقة حتى العظم، همست في أذني تائي، غنت لها ألحان تعزية، هي كما مرثيات الخنسا ء بلاغة وعاطفة. قالت لها أشيا ء أخرى تحمل في طياتها أكسير دفع، أو قوة دفع،مالت القوة إلى الجاذبية، انجذبت ثانية. لكن التا ء إياها صدمت بفعل معنت اسمه هذه

المرة : «فعل القهر الأحمق» إنه يحمل شعار الإصرار الرافض لمنطق الأشياء !

إزاء هذه المواقف. ارتدت (كان) على أعقابها، سحبت وساطتها، حطمت حقن الأكسير المقترح.

– تاؤك عنيدة عنيفة، لم تكتف بما نالت، لم تشف غليلها. وضعتني في إطار حقدها الأعمى، قالت بتشف،

– ما عاد أكسير تائك قادرا على العطاء، أصبحت سلعة مستهلكة. ما عادت تاؤك منخرطة مع جماعة الصمود والتصدي. وهذا ليس عيبا فيها، إنما لكون الصمود والتصدي ذاتها صارا –في حساب الأقوياء– في خانة البهلوانات السياسية المطمورة. وهكذا ضمت حكما إلى أرشيف المحنطات الزمنية الهابطة.

تاؤك يا هذه. أضحت في هذه الآونة لائحة هزلية. همها السخرية من مزارع حقولي البيضاء المنهكة. وبهذا صارت تاؤك ناقصة القوافي والمعاني. لأنها امتشقت حسام العنجهية. رغم أن حسامك مثلوم يا هذه، تركتِ كل شيئ. وعمدت إلى تاريخ،كان، وكان !

ما كان كان ! كان يوما مشرقا لفترة التغني. والتمني، والألحان العذاب،كان هذا عندما كانت مقولتي حية. والتي كانت تقول :

يوم كنتُ، كنتِ،
و يوم كنتِ، كنَتُ

حين كنا. وكانت –آنذاك– أمنا صبية. تحسسنا النشوة.

حين غدرت تاؤك بتائي توالى السقوط والنكوص على الأعقاب. إذ ذاك، لم يكن بمقدوري سوى تسليم رايتي إلى تائك لاعتقادي –أنذاك– أنك تتمكنين من زرع حقلي بالأسود القاتم، لأن القاتم سر العنفوان.

غشتني رجولتك الأنثوية، يوم اعتبرتها حافزا نحو الأحسن. وقادرا على وقف الزحف الأبيض المخيف، لهذا وذاك. رضيت بكلمة معلّمة. –قائد، أسلمتك الدفة. لعلك تحصدين بمنجل طغيانك الشعر الأبيض لتزرعي مكانه حقلا فاحما. قلت بسري، قد يأتي البلسم منها، لعل، ليت، عسى !

ألاحظ أن تا ءك تغلي، كمرجل حقد يحاول الفتك بكل أولئك الذين ابتدؤوا زرع شعر جديد قاتم في كل أنحا ء جسدي. وما كادوا يباشرون البذر، شعرت أن تائي ابتدأت تستعيد حيويتها ونشاطها. وأن درجة حرارتي وصلت إلى درجة الغليان مائة فوق الصفر، لعل هذ الغليا المفرط يكشط الجلد المعطوب. ويستبدله بجلد جديد ينبت مجددا زرعا أبيض ناصعا، حتى حملت معول الحفر مجددا!

أشك أن انتزاع الجلود الموبوءة يمكن من زرع مضاد، ينتمي إلى صمود وتصد محصنين ضد سخرية الزمن الهلامي الهش.

جربت حظي هذه المرة. حاولت التوسط بين تائي المهيضة. والفعل الماضي الناقص. حاولت أن أكون وسيطا أمميا ليس بين تائي. والفعل الناقص. بل بينها وبين باقي التا ءات المتعنترات

اللواتي لا تعرفن غير فن الشقاق والنفاق والابتزاز الجارف. لعلنا نستطيع أن نكون منها جميعا: تاء واحدة، تحطم أشرعة الاستسلام في الزمن الظلامي. وتعيد النضرة،

حين كنتُ، كنتِ،

و حين كنتِ، كنتُ،

حينها كنت أحلم ببصيص ضوء، ببريق أمل، بلحن مطرب. سبحت في بحيرة الأحلام الوردية، انتزع حلمي، أطل من النافذة المهشمة، نعق بوم بمقولة : (قضي الأمر)، لن يفيد الماء المغلى، لن تفيد التهويمات، لكم علاج واحد، تحروا عنه.

أحببت البوم. رغم تشاؤمي من صوته. أو من منظره،

انقطع الإرسال، اختفى البوم الناصح.

صحت، صرخت، عد يا حلمي، ما عاد بمقدوري سوى التشبث بأوهى الأحلام !

أطل الصوت الغائب، دخل إلى حجرة نومي، هزني بعنف. نطق جملة واحدة هي : «الاجتثاث».

استجمعت قواي الكامن منها والمعلن، رفعت يدي إلى السماء. صحت بيأس: طار الحلم، توسعت الحقول البيضاء ! توسلت إلى ربي القدير، يا رب، من يجتث من ؟!

انكفأت أتمتم، غشت ناظريّ سحابة قاتمة، ارتسمت أمامي اللوحة القديمة.

حين كنتُ، كنتِ،

و حين كنتِ، كنتُ،

أما الذين كانوا وكانوا ! ليتنا ما كنا، وما كانوا !

الأشجار تزهر في آذار

شرّع الجرذ فمه إلى وجه الأرض، وجهه الهرمي يتمحور حول ذاته ! كرر اللعبة مئات المرات.

حين تسربت نسمة إلى خياشمه نفض ذرات التراب، انتصب فوق تلة كونها في صبر وأناة، في مكان ما من تلته، وقف متباهيًا، أدار رأسه في حركات لولبية، حرك أذنيه اللتين تشبهان صفيحتي رادار رصد كل الاتجاهات، الأصلية منها والفرعية ! صوب شرر عينيه إلى أرجاء البستان، في غفلة من الفلاح قرر أن يحرقه في محرقة الرايخ السوداء !

استهانوا به، لم يعره أحد أية التفاتة ! هزئوا من وجوده، حذفوه من قاموس اللغة تميز غيظا، نظر إلى الأشجار في تحد، صوب سهام حقده عليها.

الكبار لا تهزمهم عنتريات الصغار !

الجرذ استعرض عضلاته. أبرز قوة مخالبه، وصلابة أنيابه، توغل في زخم التحدي، استمرأ متعة العناد، حفر هنا. نبش هناك، أحدث شروخا تحت الجذور !

الأكوام الترابية تكاثرت فوق سطح الأرض. غدت تلالا تشبه العوائق الترابية التي تعطل مرور الدبابات !

في غفلة من الزمن، ألفى نفسه وحيد زمانه. كل الأجواء لم تعد تتسع لغروره ! جعل يقفز قفزات هستيرية، ارتطم جسده بجذع شجرة «أصلها ثابت وفرعها في السماء» أقعى كالمخبول بين أكوامه، حاول الانتقام من أوراقها فما استطاع أن يقضم سوى وريقات خريفية تسفوها الرياح فوق فتحات حفرة !

عبس، فجر حقده، أقسم أن ينتقم من جذورها. جذرا فجذرا، شعيرة فشعيرة !

غاص، ابتدأ عملية سبر جديدة في باطن الأرض،

عملية الاستيعاب الكبرى تبخرت، مخططاته تمزقت حين اخترق طبلة أذنه، هديل حمامة أيك جاءه من عل !

عنفوانه تقلص عند موطئ قدميه، تعاورت ضحكات استهزاء جعلته يدرك أن الأشياء التي حوله لها أصول ثابتة في عمق الأرض، هاماتها تتطاول فوق الذرى،

الصلف الأعمى الممزوج في ذرات كيانه، يسكره،

الغرور القابع في ذاته يغيبه عن دائرة الوعي !

جرد كل أسلحته المتوفرة، رفع كل شارات الصلبان المعقوفة، نشر كل قواه في باطن الأرض. في الظلمة في المتاهات، لتعمل في الجذور قضما متزايدا.

هزت شجرة كتفيها ، لم تكترث، قالت الأخرى : «حين تحذى الخيول الأصيلة فلا تمد أرجلها الخنافس! «قالت ثالثة : إن تحدى من له أصول في عمق الأرض. وهامات فوق الذرى، لا بد أن يلقى نفسه إلى التهلكة ! قالت رابعة لها تجربة وخبرة مقرعة جميع الأشجار: لا تحسبن اللعب تحت الأقدام دغدغة صديق ! لا تركن إلى الاستسلام، انفرن خفافا وثقالا ، ما بالكن لا تعبأن بالموسيقى الجنائزية ؟! ألا تثير مشاعركن، شارات الخطر المزمجرة ؟! «أسمعت لو ناديت حيا » !

الجرذ يزيد عدوانه ! الأشجار تجندلت واحدة إثر أخرى ! تعفرت جباهها في التراب ! رقصت الجرذان، داست هامات الأشجار المنبطحة، ابتدأت تغني أناشيد الظفر التترية ! ترفع الصلبان الهتلرية !

الأشجار أحست أول مرة بالوخز حادًا تحت أقدامها ، أبعدت من مخيلاتها ، فكرة، دغدغة الأصدقاء أو مداعبة الأقارب !

تكأكأت الأشجار علي بعضها ، جعلت تذرف الدمع مدرارا ! حمائم الغابة وبلابلها رثت لحالها ، طيرت برقيات التعزية،

هتفت مواسية ! أرسلت قصائد رثاء مطولة ! المضمون فيها : حماسة عنترة. والبعد : حكم زهير !

لحظة رجوع الذات، ابتدأت الأشجار تحركا جديدا، اجتماعات، احتجاجات. صيحات هستيرية، تلويح قبضات ! وكان يا ماكان !

الجرذان تنخر الأدمة في هدوء وتصميم !

الأكفان البيضاء ملأت الساح ! المواكب الجنائزية تكاثرت، تتقدمها الأنغام الحزينة، الأعلام البيضاء ابتدأت ترتفع هنا وهناك !

حمامة بيضاء صاحت بالمشيعين : مهلاً يا قوم لا تمشوا إلى حتفكم رغم أنوفكم، فالأشجار تزهر في آذار (مارس).

رزنامة زمنية لأحلام الشباب

تهويم:
عيون المها عيونها ،
جيد الغزالة جيدها ،
نبضات قلبي تغريها!
زمن التهويم المغلف :
عمتُ في متاهات العشق السرمدي،
سبحت مع تيار مفاتن حبيبتي،
أدغدغ أحلامي، أناغيها ، أمنيها ،
عيون المها عيونها ،
جيد الغزالة جيدها ،
.، .، .،
رافقتني أمي في تهويماتي
همست في أذني :
- أحلم يا ولدي ! أحلم !

- لن أقول لك (أف).
سأحلم ولو بسراب يا أمي،
فلأحلم كما أمرت،
عيون المها عيونها،
جيد الغزالة جيدها،
نبضات قلبي تغريها،
بطحاء صدري تستهويها،
ياليل، يا عين،
عاد همس أمي يدغدغني،
هتفت أمي :
خُلقتما معا لتسكنا معا،
يا ولدي
- السكن جاهز، جاهز،
كخاتم سليمان في بنصري
ضحكت أمي سخرت :
- أشبعتني ضما،
- لا تستخفن يا ولدي
خاتم سليمان في زمن الطوفان،
أحلامي سيل دافق،
تطلعاتي وشي منمنم،
عسجدية دروبي،

لؤلؤية ممراتي،
وردية آمالي،
لن أحرم شيئا مادام الخاتم
بإمرتي
يلبي رغباتي،
شيء من همسات أمي يحثني،
- أحلم، يحق للشباب أن يحلم !
فالأحلام طوفان
- لم يبق لكم سوى الأحلام !
فهذا زمن الأحلام
يا ولدي ،
أحلم !
زمن الأمواج العاتية،
الليل بهيم، كما كياني،
يتثنى يتمرغ، يتقلب،
أغفو تطاردني الأمواج،
أهرب تردني الأمواج،
أدس رأسي في لحافي،
تعريه الأمواج،
هتاف أمي ينساب يائسا:
حياتك أمواج، أمواج.

أمواج يا ولدي،
أمواج !
زمن التمرد والنكوص،
قدماي حاولتا الإفلات،
أعلنتا التمرد ،
رفستا اللحاف،
قررتا الإفلات من الطوق،
أرادتا أن تريا النور نورا ،
هامتا ، وقعتا على جليد ،
صارتا ترتعدان،
ارتعدت أنا !
حاصرني مطر منسكب من السماء ،
ألف ثقب يدلف منه الماء ،
هذا أوانك يا خاتم سليمان،
هيا أنقذني ياخاتم سليمان !
صاحت أمي، صرخت،
طار خاتم سليمان
طار يا ولدي !
أنج بنفسك، أنج
ما عادت الخواتم تجدي
الخاتم نجا بنفسه،

إننا في زمن السقوط يا ولدي !
زمن الأنات والعثرات،
صيحاتي سكرى مكتومة، كآهاتي،
تغوص في بحار إرهاصاتي
تلعق مرارة تأوهاتي،
عانقت الأرض استجداء،
خانتني قدراتي !
لا شيء يمنع زخ المطر،
من يقاوم السيل المنهمر،
أهميت،
بين الطمي، التقطت همس أمي،
قاوم الأوحال، لا تيأس
لا تيأسن يا ولدي، لا تيأس !
زمن القفز واللّبط:
قفزة على اليمين،
قفزة على اليسار،
ثالثة بين بين،
لبطة بين الإثنتين
الخامسة بطحتني أرضا،
اندثرت وسط بركة ماء آسن
ضاعت لبطاتي، شلت حركاتي،

صوت الأم يطاردني :
اقفز، ألبط، تشبث بأوهى خيط،
تشبث يا ولدي تشبث !

زمن المخاض العسير :
ليس في مقدوري اللبط أكثر، يا أمي،
ولا القفز أكثر، انتهيت يا أمي !
انتهيت !
صوت زلزل الدنيا ، صوت أمي،
سيأتي المولود ، زمن المخاض قد اقترب،
سيأتي المولود في الزمن الموعود ،
فزمن المحبين مشرق، آت،
لا ريب آت، آت.
حتى في زمن السقوط
حتى في زمن السقوط يا ولدي !

زمن التحليق :
يغريني التحليق، فأنا أجيد التحليق،
فربما هناك، أبصر عينيها ،
فلربما أدرك شعرة من مفرقيها ،
فلربما رشفة من رحيق شفتيها ،

هتفت أمي، دعك من ربما !
صمم، واصل التحليق. ستطالها يوما،
ستعيشان يوما، حتى ولو كان ذلك
تحت سقف الأحلام الوردية !
زمن الغوص :
ربما يا أمي ربما، أحببت ربما،
سأركب قاربي وأغوص في الأعماق،
إنني أتقن فن الغوص،
ها هي ذي يا أمي، قيد أنملة مني،
تبوح لي علنا،
حثتني أمي فرحة :
أدركها يا ولدي أدركها،
سأعقد لكما،
أنا شاهد العدل، وولي الأمر،
وحتى الصداق مني، يا ولدي،
ولكن أين نسكن يا أمي ؟.
لقد طار خاتم سليمان من يدي يا أمي،
لا تشغلن بالك. فلقد استأجرت لكما،
حيزا من رصيف يا ولدي !

زمن التهويم النهائي :
تكورت على نفسي، رددت اللحاف على رأسي،
كررت الأغنية الحلم :
عيون المها عيونها ،
جيد الغزالة جيدها ،
نبضات قلبي تغريها ،
بطحاء صدري تستهويها ،
يا ليل يا عين،

قضية نسبية !

صمتًا أيها الشرير، مازلت صغيرا ! هذه مفاهيم كبيرة ! كبغل غراف. تابعت الدوران في حلقة مفرغة.

- أرجوك، أستاذي الكريم. لم أستوعب درسك ؟! أريد توضيحا يتناسب ومداركي القزمة !

أنت خطير جدا، هل سلطك الله علي أم دسك أحد ؟. أتريد أن أدخل السجن يا ابن الأبالسة ! الحرية هي الحرية ! الحرية لا تتجزأ. كفاك حشرية !

بلهجة فيلسوف رددت على أستاذي الجليل :

«فسر الماء بعد الجهد بالماء،»

- يا ولد !

لا تغضب يا سيدي، هذه معلوماتك التي زودتنا، و«بضاعتك ردت إليك».

عينا أستاذي صارتا في السقف، صاح : يا بني الحرية قضية نسبية ما تراه أنت حرية يراه غيرك عبودية. توقف عن

الكلام، تلفت هنا وهناك، نظر إلى ساعته متوسلا علّها تسبق أرقام مينائها !

خانته ساعته. تابع درسه عن الحرية وعن البلبل الذي وضعه صاحبه في قفص من ذهب ففر منه ونأى لأن حريته لا تشتري بالذهب !

خضعت -بلا وعي- لأمر تلقيته من شعوري الباطني، إنه أمر لا إرادي. ولا سلطان لأحد على غير الإرادي ! حوافز أخرى أكثر جرأة دفعتني للاعتراض المحتشم.

اعتبر الأستاذ تصرفي. إهانة لقدرته. وانتقاما لمعلوماته. أرغى، أزبد، هدد وتوعد ! ثم سألنا بتهكم : هل فهمتم معنى الحرية ؟

إجابة واحدة مشتركة صدرت عنا -نحن تلاميذ القسم- «نعم يا أستاذ» حتى النّومُ منا صاحوا -بعفوية- نعم يا أستاذ !

الأستاذ إياه ولكي يوثق جريمتي ويعريني أمرني أن أقف وأعرف الحرية.

وقفت مكرها وأجبت: الحرية بلبل وقفص من ذهب ! البلبل مجنون يا أستاذ مجنون من يرفض الذهب؟

قهقه زملائي ساخرين من إجابتي !

نلت صفعة من أستاذي.

عُقد اجتماع طارئ من أجل النظر في مشاكلي ومشاغباتي. مجلس الأساتذة ومجلس الآباء، وحتى مجلس الأمن، تدارسوا

وضعي وأقروا خطورة وجودي لذلك أوعزوا باجتثاثي ولفظي. كما تلفظ النواة !

تحديت كل المجالس الانضباطية، صممت أن أجد من يعلمني معنى الحرية !

ضممت الأرض ردحا من الزمن، عانقت السماء دهراً، تضورت جوعا، لم أبك !

كم اجتررت القهر وأنا أرى زملائي يقصدون المدرسة. ويخرجون وهم جذلون غير أنني لم أحسدهم، لأنهم سيتعلمون كل شيء. إلا الحرية !

رحى الزمان تدور، تسحق، تطحن من تشاء متى تشاء !

حط الطحن بكلكله على عتبات دارنا! انتزع أبي ونحن زغب الحواصل، انقطع مورد رزقنا !

امتهنت التسول وسيلة، لم أبك !

الطحن. اختطف أمي. افتقدت الصدر الحنون، ابتلعت دموعي. لم أبك ! صار صباحي كمسائي، أدمنت التشرد والفاقة، تساوت لدي الأبعاد كما اختلطت عليّ مفاهيم أستاذي سابقا، لم أبك !

تفانيت في خدمة المعلم، لعلي أكسب صنعة. وأتقي الفقر والتشرد.

كادت قدماي تهترئان، ست عشرة ساعة أقضيها بين دوس الجلود لأغمسها في الماء جيدا أو أعضها لأتأكد من نضجها !

آخر نهاري، أقبض دريهمات لا تسمن ولا تغني متبوعة بجملة «الله يعطيك العافية» و، و، ابتسامة. كنا أكثر من عشرين عاملا عند الدباغ، جلنا من اليافعين،

كانت تفصلني عنهم هوة سحيقة، أنا أصغرهم سنا، وأقلهم تجربة، لكني أكثرهم حضوة عند المعلم ! سمعت زملائي يتحدثون همسا عن رفع الأجور، عن انقاص ساعات العمل، عن النضال من أجل الحرية !

اختلطت علي المفاهيم! اختلطت بزملائي أول مرة أخذت ألوح قبضتي الصغيرة في السماء، وردّدت شعاراتهم. رغم أنها لا تزال طلسمات تتزاحم في ذاكرتي المتعفنة !

لا يهم، ربما تكون هاتيك الشعارات نسبية هي الأخرى !

المهم أنني اندمجت في المعمعة صائحا شاتمًا ! انتهت عنترياتي الطارئة حين أقبل المعلم غاضبًا. إذ سرعان ماتصاغرت وتكورت على نفسي مندسا بينهم.

أول تحية حيانا بها بعد أن هدأ ضجيجنا قوله: سترون يا أبناء الكلب ! عمال آخر زمان ! من أين أتيتم بهذه الأقوال الهدامة ؟ نضال، حرية، خزعبلات ! تفاهات!

تذكرت الأستاذ ودرسه عن البلبل الذي فر هاربا، تذكرت تعريفه للحرية، (الحرية هي الحرية)، استغفلت زملائي، انسللت هاربا كي أنجو بريشي ! حيلتي ردت إلى نحري. طردت مع من طرد. عدت إلى التشرد الذي غدا توأمي المفضل.

لم يتخل عني زملائي العمال المطرودون، أخذوا بيدي، وجدوا لي شغلا في مصنع كبير للنسيج، وصفوه لي بأنه مؤمم،

التأميم مفهوم آخر استقبلته، غير أنه لم يعد لغزا. عرفت الاستقرار. أول مرة في حياتي. مرتبي الجديد يعتبر قفزة نوعية إذا ما قورن بدريهمات الدباغ !

الردة علمتنا مكتسباتنا المتواضعة، وأعادتنا إلى أحضان التشرد ، هذه المرة طردنا قمعًا! أفرغت مصانعنا.

القمع، زاد طبقتنا تلاحما ، مما جعلني استقبل التشرد بالضحك وكما يقول المثل : «معلم على الصقعات قلبي» لم أبك !

المرحلة الموالية فتحت العيون على قضايانا. فكانت بالنسبة لنا منعرجا تاريخيا حاسما.

في هذه المرحلة شهدت فيها ساحتنا العربية هجمة شرسة وتكالبا استعماريا وقحا.في هذه المرحلة كذلك، استطعت فك كثير من الرموز التي كانت قد استعصت على فهمي في الزمن المدبوغ !

في هذه المرحلة أيضا ، شهدت جماهير أمتنا تحولات جذرية. خاضت أروع ملاحمها النضالية المجيدة. لم يعد لنا شاغل، سوى ممارسة النضال. وشرح الأفكار النيرة. والمناداة بالحرية. فكان هذا الثالوث، غذاءنا وهواءنا ، طعامنا وشرابنا !

الاستقرار وتأمين عيش مترف، من آفات الانسان المناضل. ومعطلا لحوافزه.

فما أن استقر بي الحال حتى فكرت بإكمال نصف ديني، والسعي إلى من يخلد ذكري. رزقت ثلاث فتيات رائعات الجمال. حمدت الله على هذه النعمة.

كثر اللغط حول تسميتهن، ولما كنت ما أزال مشحونا بواقعي النضالي فقد أسميت كبراهن نضال تيمنا بنضال الشعب العربي ! وأسميت الوسطى القضية. نظرا لإيماني العميق بجدواها ! أما أصغرهن وأحلاهن وأغلاهن فقد أسميتها «حرية» لكوني أعشق الحرية أيما عشق، ولكون مفهوم الحرية أضحى عندي يعادل الحياة.

في السنين العجاف، أتى الجراد على كل شيء ! أمحت الحياة من على وجه الحياة.

اغتيلت البراءة حينما اغتالوا نضالا، فلفظت أنفاسها كمدا بالسكتة القلبية ! فلم يمت قلبي ! لم أبك !

في سيلول القهر حاصروا القضية فذبحوها من الوريد إلى الوريد ! تمزقت، لكن نبضي لم يتوقف ! لم أبك !

عرفوا مقتلي، استدلوا على مخنقي، فخنقوني حين وأدوا حرية،

حينئذ بكيت، بكيت على وأد الحرية !

خمسة ضرب ستة

- اليوم درسنا الجديد هو: الضرب في سبعة، ما هو درسنا بالأمس،

- جدول الضرب في ستة يا أستاذ!

- أحسنتم، وهذا مايشجعني لكي أمضي قدما في تعليمكم. من حفظ الدرس. ؟

- أنا، أنا، أنا،

تعاور التلاميذ الضمير، أنا بينهم، بسرعة عجيبة، تطاير في الأجواء، عينا الأستاذ كانتا تجوسان كل الاتجاهات، أما إبهامه. فقد وجهه إليّ مباشرة.

- أنت يا عبد، خمسة في ستة، كم تساوي.

جاءكم خير، وجاءتني صفعة، أفقدتني وعيي أطارت شرر عيني.

- كسول، خبيث، (دراسة ما في، هاه)، سترى عقوبتك يا مجرم!

خمسة في ستة. عملية حسابية بدائية. لا تحتاج إلى تفكير أو تنجيم أو هكذا يزعمون، هذه العملية، كان من الممكن أن تؤهلني لنيل دكتوراه في الرياضيات الحديثة لو أنني استطعت -يومها- الإجابة على أسئلة أستاذي رحمه الله.

خمسة × ستة تطاردني أينما ذهبت وحيثما حللت. إنها عقدة شؤم بالنسبة لي، حتى هنا في باريس، (بلد الجن والملائكة).

في باريس يا سادة يا كرام «تضيع الطاسة» وبخاصة إذا كان يوم أحد. وكلمة يوم أحد تذكرني بالمثل : «يوم الأحد، ما أحد لأحد»،

نحن في شهر (أوت/آب.) أو آب اللهاب، واليوم يوم أحد. السماء صافية الأديم، الشمس ساطعة، هكذا حدثنا مضيفنا وهو يوقظنا مبكرا. ما رأيكم لو أمضينا يومنا في قصر فيرساي الذي حدثتكم عنه كثيرا. آن الأوان.

- هذا حلمنا، رددنا جميعا،

الساعة الآن السادسة صباحا. أقلنا القطار السريع رقم ستة. من ضاحية «نوجين» إلى ربوع القصر الشهير.

كنا ستة، أنا وزوجي المصون -المتحجبة- حتى في باريس بلد الحرية والتحرر. يرافقنا ويمولنا صديقنا الشرقي. الذي كان يتأبط ذراع سيدة فرنسية حسناء أنيقة تفوح عطرا باريسيا.

السيدة لها ولدان، نائيل في العاشرة من عمره. مشيل ابن السادسة،

الساعة التي انطلقنا فيها، السادسة،
عددنا ستة أفراد.
مشيل الذي يلقبونه بـ : «ميشو» عمره ست سنوات،
العدد ستة، سبب مصابي، يطاردني باستمرار، بلا انقطاع.

بلا انقطاع كانت الحشود تتوافد، حتى خلت أن سكان المعمورة قد حشروا هنا !

أشعة شمس هذا النهار كانت ساطعة جهنمية، الباريسيون، يرونها رحمة وبهجة لذلك يستقبلونها بالعري الفاضح، أو الاستلقاء الواضح، يعرضون أجسادهم كاملة. أو أقل: تسعة وتسعين بالمائة منها، فاصل تسعة وتسعين !

تسعة وتسعون، فاصل تسعة وتسعون بالمائة. نتحاشى نحن الشرقيون أشعة الشمس.

لم أهتد إلى السبب الجوهري بعد، فلربما كون شمسنا ساطعة، سافرة، بينما شمسهم متحجبة، محتشمة، شديدة الخفر. لذلك نراها مبذولة متبذلة ويرونها نادرة ثمينة !

ثمينة هي بطاقات الدخول إلى القصر. خمس فرنكات فرنسية لولوج الباب، وهذه ضريبة مباشرة على كل رأس، ونحن كنا ستة رؤوس كما تعلمون، وبعملية حسابية بسيطة يكون ثمن التذاكر : ستة × في خمسة، وحتى يأتيني الجواب، دعوت قافلتنا المتكونة من ستة رؤوس لتشق طريقها إلى ألف

ميل وسط خلق اختنقت بهم الساحات والحدائق على رحبها.

وهذه المساحة تضم قصور ملوك فرنسا الغابرين. تتجاوز الستة آلف متر مربع، وكل قصر يضاهي الآخر رفعة وضخامة.

رفعة وضخامة متحف فرساي أغرتنا لكي ندفع بسخاء. خمسة وثلاثين فرنكا فرنسيا، وهنا نحتاج إلى عقل يقارنها بعملتنا المحلية، لكن المبلغ، على كثرته، يتصاغر عند أقدام التحف الثمينة والنادرة التي تمتعنا برؤيتها ! المؤسف أننا لم نمسح سوى جزء يسير من القصر لأن ذلك يتطلب منا أياما، نظرا لسعته.

سعة الحدائق أرغمتنا هي الأخرى على ركوب القطار الداخلي. ودفع الحساب صديقنا وهو (135) فرنكا فرنسيا. أي أن أجرة ركوب القطار داخل الحدائق -نحن الستة- يعادل. ألف وثلاثمائة دينار جزائري أو أزيد من ألف ليرة سورية مما يعدون !

مما تعدون من الصفعات الحاميات. راحت تتوالى عليّ. فكانت أشبه بغذائي اليومي.

بصمات يدي أستاذي رحمه الله رحمة واسعة -مازالت ماثلة على أجزاء عدة من جسمي، آثارها موشومة، إلى الأبد في تجاويف الذاكرة. ممثلة في العدد ستة !

عدد الزوار يتزايد بحسب سلسلة هندسية.وبما أنني رسبت مرارا في امتحان الرياضيات. وبما أن عقلي لم يتحمل ثقل

« ستة » الموقرة. لذلك أوجه النداء لذوي الحل، للذين لم يرسبوا يوما في الرياضيات. ولم يتعقدوا مثلي لعلهم يجدون لي حلا لمعضلة الستة. التي خلفها الزمن. جاثمة كما الوباء.

المهم الآن أن أنسى همّ العدد المشؤوم إياه. ولكي أمضي مع المتوغلين رويدا رويدا داخل الحدائق الساحرة، عليّ أن أتحرر من شرقيتي المتشائمة ولو إلى حين، إذن يجب أن أقتنص كل منظر، أن أتمتع –مع المتمتعين–. بكل مشهد خلاب. ولا أكتم أنني حسبت المشاهد ستكرر ذاتها. سأرى صورا طبق الأصل. « فوتو كوبي » لكن الواقع دحظ افتراضي. إذ أن كل مساحة. كانت تختلف عن الأخرى شكلا وهندسة وتنسيقا. لذلك ما كانت المناظرة مملة.

الشيء المهم الذي لفت نظري، أنني لم ألاحظ عقب سجارة. أو ورقة على الأرض. وحتى نحن الذين اعتدنا أن نرمي أوساخنا وأعقاب سجائرنا في كل مكان ودون حرج، تحرجنا هنا ! ولا أدري إن كنا فعلنا هذا خشية مراقبة السيدة الفرنسية لنا. أم أنها عادة اكتسبناها حديثا من هذا المجتمع. والتي نأمل أن نطبقها يوما ما في بلادنا. لعل وعسى !

لعل وعسى أن يهديك الله يا ولدي، لماذا تكره المدرسة ؟.

– الأستاذ. الأستاذ، كرهني إياها يا أبتي، يضربني بسبب وبلا سبب !

- غريب، تقول بلا سبب ؟! هذا غير منطقي !

- غير المنطقي. أنك لم تكلف نفسك. وتسأل عن حالتي ومأساتي،

- حالتك ! مأساتك ! يا لطيف ! كأنّ خطبا ألمّ بك !

- إنه خطب يا والدي، خطب جلل، تصور أنني أخطأت مرة في الحساب وأجبت عن ضرب خمسة في ستة بأنها. خمسة وثلاثون، فجاءك خير وجاءني شر !

ضحك الوالد الموقر، حتى الاستلقاء، ردد باستغراب :

- وهل يوجد إنسان على وجه المعمورة لا يعرف (6 X 5).

- أجل. أنا ما عرفتها يوما من الأيام. هي زلة لسان. تلعثم، ارتباك !

صارت الزلة. لعنة تطاردني،ما عدت أطيق المدرسة، إهانات الأستاذ تتوالى. صرت سخرية زملائي، أنا من الأوائل في معظم المواد. إلا في الحساب (6 X 5).

- أريد تبديل المدرسة،

- تبديل المدرسة ! ماذا قلت ؟. كيف تتجاسر ؟، ،

جاءكم خير، وجاءني كف، أمضى من كف الأستاذ !

ضربت بكف، وأنا ألاحظ السيد ميشو المدلل الصغير. وهو يكاد يحطم سيارته الصغيرة التي اشترتها له أمه منذ لحظات ليلهو بها. إنها لعبة لطيفة وثمينة، نموذج عن سيارات النجدة، سعرها أزيد من مائتي فرنك.

بعد دقائق. توقفت سيارة ميشو، ما عادت تدور، انحبس صفيرها، توقعت أن تثور أمه فتصيح ثائرة، كما تفعل أمي،حين أكسر شيئا. - حتى ولو كان تافها - وهي تزبد وترعد، تتهدد وتتوعد : «العمى يضربك، شوف كيف كسرتها، الله يكسرلك دياتك، ويخلصني منك».

توقعت أن تنطلق إليه كصاروخ، وتشبعه ضربا ولبطا، صفعا وركلا.

كل ما فعلته أمه. أنها هزت كتفيها. وخاطبته بلطف،- تصوروا بلطف- قالت : لقد حرمت نفسك من التمتع باللعب، أرجو أن تكون هذه الحادثة درسا لك طيلة حياتك أيها الصغير المشاكس.

الصغير المشاكس، رآني مهتما به لذلك اعتبرني ملاذه الأخير فقصدني لإصلاح عطب سيارته، حاولت فلم أفلح، وكما يقول المثل (مجنون ألقى حجرا في بئر. ألف عاقل ما استطاعوا إخراجه،).

اعتذرت لميشو ورددت له سيارته.

حشريتي دفعتني لكي أسأل الأم :

- سيدتي، لم لم تعاقبي ميشو، على فعلته المنكرة ؟،

تبسمت الأم. وردت بهدوء :

- أولا لم سميتها منكرة ؟! لعبة الطفل معرضة للكسر في كل لحظة ! وثانيا يجب أن يكسرها، حتى يعتاد فكها

وتركيبها. وهكذا يتقن التقنية مبكرا. وثالثا : -وهو بيت القصيد- كيف تريدني أن أضربه، أما تعلم أن الضرب يعقده،و يحرمه من التمتع بحريته، ولكي يفهم معنى الحرية، عليه أن يمارسها منذ نعومة أظفاره !

منذ نعومة أظفاري، وأنا أسير الممنوعات، حبيبتي المحرمات، فإن سلمت من رذاذ العيب. تتلقفني زخات الحرام. وإن نجوت من العيب والحرام. تلاحقني كلمات العار والشنار !

أمي، رحمهاالله. وطيب ثراها. كانت -بدافع حنانها الطاغي- تكرهني على رضاعة ثدييها قصرا. حتى ولو لم تكن بي رغبة للرضاعة، وهكذا حرمت تناول طعامي بحرية. متى أشاء. وكيفما أشاء !

حين ابتدأت أضع أصبعي في فمي، أو أداعب شارب والدي. كانت تضربني وهي تزمجر : «عيب، كخ !» فافتقدت حرية الحركة من الصغر !

حين كانت تلبس أخي أو أختي الصغيرين لباسا داخليا. -أو أتلفظ، بعض كلمات تتبعني كلمات الحرام. العيب. العار، وهكذا افتقدت حرية النظر وحرية الكلام.

رغم كلمات العيب والحرام التي توغلت في أعماقي، أعتقد أن ذلك جعلني أتشبث باستعمالها سراً. أو علنًا لدرجة أن كثرة الأجساد العارية حولنا لم تشبع نهمي القديم لذلك رحت أسترق النظر. حين أتأكد أن حرمنا لاهية عني !

لم يشغلني شيء عن التمتع أو استراق النظر. إلا حين نتصادف. فرقة موسيقية متسولة أو أحد الرسامين (الشحاذين) الذي يصورك بلمح البصر، على الأرض، أو على ورقة مقواة. فيضطرك لدفع ما فيه النصيب،

أدفع، أو ندفع لهذا ولذاك، للقطار: رسم دخول. ثمن طعام، أو للرسامين الشحاذين الشرفاء، للفرق الموسيقية المتسولة، أو ثمن لعبة ميشو المدلل.

أملي كبير جدا في أن أجد شهما يتطوع، ليحسب مصروفنا في سويعات مضروبا في ستة ومحولا من العملة الصعبة إلى مثيلاتها بالعملات المحلية ويعطيني الحاصل مهما يكون، كي أقدر كيف نعيش، كيف يعيشون ! لتزول عني عقدة 6 × 5.

مخزن علل

المرض حاصرني، اجتاحني من كل الجبهات !

عرضت نفسي على أمهر النطاسيين، ذوي المعرفة والاختصاص الرفيع. ما من ذرة في جسدي إلا وطالها مبضع جراح، أو لمسها طبيب !

أجمعوا : أنني معتل الأول والوسط والآخر. (مثال أجوف ناقص) في التعبير النحوي. إذ أن كل طبيب شخص الداء، لكنه عجز عن وصف الدواء الذي يشفيني!

الأول: أجفل، ارتعشت يداه، حين لمس شعر رأسي. قال:

– مرض خبيث غزا شعرك! شعر رأسك مصاب بداء الانتصاب! هل في حياتك مواقف تستدعي انتصاب الشعر ؟!

– أجل أيها الحكيم، شعري ينتصب عشرات المرات في اليوم الواحد ! هذه الظاهرة تتكرر، كلما واجهت موقفا مرعبا، وما أكثر المواقف المرعبة في حياتنا!

طبيب الأمراض العقلية. تهيب حالتي. قال:

- فكرك يعمل فوق طاقته، منشغل في رصد أمور كبيرة ومعقدة، وليس في صالحنا إشغال الأفكار في هذه الاتجاهات،

طبيب العيون: قبل أن يقرب مجهره من عيني. جعل يحدق بي بفضول، أخذ يزبد ويرعد، كأني خصمه !

- بك علة مستديمة خطيرة، اسمها في علم الطب الحديث. (النظرة الجدية إلى بواطن الأمور الخفية). وهذا تصرف شاذ في عصرنا ! يسبب العدوى !

طبيب الأذن راح يصفر -هو الآخر- بعصبية زائدة:

- إنك معتوه يا هذا ! سمعك دقيق مرهف، أصحاب السمع المرهف خطرون في زمننا لا تسمع إلا بما يسمح به ! فاسمع نصحنا تستريح !

طبيب الأنف: زعم أنني أشم ما لا يشم، ومن يشم ما لا يشم يجرم، ونحن، لا نسمح بشم الروائح المخفية! لك قدرة فائقة على شم المخفيات ! أعلم أن ما تحت الغطاء لا يهم إلا أصحاب الغطاء !

طبيب الذوق أعلن أن حبيبات الذوق عندي. ازداد عددها عن الحد المسموح به، إن هذه العلة الفتاكة تسبب لك كثرة الكلام وطول اللسان، كلامك يزعجنا ! نحن نكره طوال اللسان. كلامك سيرميك إلى الهاوية !

- طبيب اللمس ادعى أنني ألمس كل شيء بشفافية مفرطة. شفافية الواعين منبوذة ! إنك حشري تستشف أموراً خطيرة. والقوانين تحذر لمس الأمور بشفافية، لدينا حدود، لا نسمح بتجاوزها، تخطيها من الجرائم الكبرى.

طبيب القلب حين وضع المسمعة على قلبي انتفض كالمسلوب صاح بي :

- يا هذا، يا لهذا ! إن قلبك ينبض بقوة غير اعتيادية، نبضك تجاوز المئتي نبضة في الدقيقة الواحدة، إن قوانين حمو رابي ممنوعة التداول في يومنا هذا ! هي من المحرمات !

طبيب المعدة أكد أن معدتي لا تهضم أشياء كثيرة، ذكرني بالمثل القائل «الذي أكل، أكل، والذي ضرب ضرب،» عليك أن تهضم هذا الواقع،

طبيب مرضى السكر نبهني إلى أن زمن السكر قد انتهى وولى إلى غير رجعة. طلب مني أن أهيئ نفسي لكي آكل الحنظل، الويل لك يا حنظلة الشؤم !

طبيب الحساسية أقر أنني أتمتع بحساسية مفرطة، بل مبالغ فيها. علتك أنك تعالج أمور هذا الزمن بحساسية.

استمرت جمهرة الأطباء في الفحص والتشخيص، يدققون، يصدرون التعليمات يدبجون الوصفات، كل واحد كان بارعا في عرض المحظورات، ورسم المحرمات !

الأول وصف لي دواء الاستسلام للخوف زاعما أن دوائي الوحيد هو تناول المخدرات والمنبهات والمنشطات كي لا يقف شعر رأسي، وإلا سيبقى منتصبا طول الحياة، وربما في الممات !

الثاني ، أمر أن أحجر فكري، أن أخنقه في تجاويف الذاكرة، قالها صريحة : عطل آلة التفكير، تناول المخدر لتنام بأمان، «مافاز إلا النوّم».

الثالث قضى بأن لا أرسل بصري إلى الفاعات. وألا أتناول قطرات فيها مركبات «ميتافيزيقية« . لأن النظر إلى ما وراء الأحداث حرام ! الاستشفاف حرام ! أمرني أن أنظر إلى السطحيات فقط وبسطحية !

الرابع أرغمني على ثقب الطبلة الغشائية للإذن،تعطلت حاسة السمع، ما عاد يفيدني أي علاج، محظور علي تناول غير المسموح، لأنه غير مسموح وكفى !

الخامس منعني شم ما لا يسمح به. وإن دس الأنف في مواطن الأحداث يأتي في قائمة المحظورات. وأن تناول المنشطات من الممنوعات ! لا تتناولها.

السادس كتب لي وصفة واضحة بليغة تقضي بأن أقفل فمي وأمتنع عن الكلام نهائيا. أن أستأصل اللسان من الجذر ألا أتحدث إلا بما يسمح به، ألا أتناول من الأطعمة إلا المسموح بها وعند الضرورة !

السابع أوصاني أن ألمس الأشياء بأحد أمرين. بسطحية مبتذلة، أو بسطحية تصل حد الإسفاف. كما أمرني أن ألبس القفازات الواقية حين ملامسة المحظورات. حدد قائمة الأطعمة، فلا أتناول منها كيت وكذا، لأن كيت وكذا تدخل في صلب المحرمات شرعا !

الثامن لكي يوثق خطر قلبي أصدر تعليمة تمنع النبض العنيف، لأن النبض العنيف يولد العنف! وأن «الفيفا» ذاتها. تحظر استعمال منشطات القلب! وحتى الأطعمة. التي تزيد رباطة الجأش غير مسموح بتناولها.

التاسع كتب لي وصفة جاء فيها: لزام عليك دفع ضريبة «من أكل أكل، ومن ضرب ضرب، ومن هرب هرب،» زاعما أن قوانينهم تجيز «تزر وازرة وزر أخرى» لا تتناول، الحمضيات، المعجنات، الدهنيات وبالخصوص المحرضات !

العاشر طبيب الأمراض السكرية. منعني منعا باتا من تناول الحلويات والنشويات: تناول الحلو ممنوع !تناول المر مسموح يا حنظلة الهمام ! «اخشوشنوا فإن النعومة لا تدوم».

طبيب الحساسية همس في أذني قائلا: القنص ممنوع، قنص الأحداث الخفية بوجه خاص، لا تقترب منها ضعها وراء ظهرك، الاقتناص يعرضك للقصاص، لا تتناول البيض «والشوكولا» الجبن والحليب ومشتقاته، لا تأكل كذا وكيت، هل نسيت ! تناول المخدرات ! واستعد لما هو آت، وكل آت آت !

جمعت الوصفات الطبية، والتعاليم الهمايونية، جعلت أتلو تعاويذها ، أصبت بالدوران، بالغثيان، صحت من أعماقي. -صوتي ما يزال سليما-. يا هؤلاء ! ماذا أبقيتم لي، أستغيث بكم أغرقتموني، حرمتموني من كل شيئ !

- أريد أن آكل لكي أعيش،

- من قال لك أننا نريدك أن تعيش ؟. من يريد أن يعيش بيننا. يجب أن يرد ذكره بشق من الآية الكريمة : «صم بكم عمي فهم لا يفقهون». !

لململت شتات قوتي المهيضة، جمعت الوصفات الطبية، والتعاليم الفوقية مزقتها أحرقتها ، نثرتها في الفضاء. جعلت أدور حول نفسي ثم أصيح وأصيح: لعل صوتي المقهور المحاصر يصل إلى أذن سليمة، أو يصل إلى الملكوت الأعلى،

رمم على الدرب

رمم على الدرب تتكأكأ، محاولات حقد لكتم أنفاسي.

أعين الأزمة النفسية متكاملة الجوانب !

كل أوصالي تحيا زخم الأزمة !

ضيق، كربة. غربة !

أصيبت بالإعياء كل الحركات في جسدي، الإرادية منها وغير الإرادية.

حواسي الخمس ضاقت بي ذرعا ! تحاصرني، تتحفز لاغتيالي !

أصوات أخرى تنبثق من أعماقي، أن اصمت، هذا قدرك !

مهلا يا هذا يا أنت، يا تلك، أنا هنا أتنفس عبير ماض مشرق،

عبثا، أنك تعيش مسرحية الأحداث !

الممثلون، شخص واحد !

المتفرجون، شخص واحد !

الكاتب، شخص واحد !

المخرج، شخص واحد !

المحركون، أشخاص عدة !

الموضوع، رمم على الدرب تتكأكأ !

حواسي، مازالت مكدسة في الدرب ذاته، تقرع طبول الشماتة، تصرخ، تقهقه في هستيريا مجنونة، امضغ الحنظل وحدك ! حواسك ضدك !

وقفت على قدمي، صرخت توسلت، دعوا لي منخارا واحدا !

سمعت من خلف المعميات بوما ينعق: دع اللجاجة ! هذا زمن العجب !

رقصت رقصة الموت، تمايلت، ترنحت، صحت من أعماقي: صبي ما عندك يا أحقاد العمر، يا كل الأحقاد، لتحشر في بوتقة ذاتي كل الأزمات النفسية، لا بد أن يطل علي بصيص نور من خلف الكوى، لا بد أن أستل قلما ماضيا أذبح به الكابوس المعشعش في مخيلتي.

– صبرا، يا هذه. يا أنت، يا تلك، يا... لن أعدم حيلة فلسوف أتسلل في غفلة من الرمم، سأضيئ الدرب لكلمتي، سأجعلها تتسرب في العمق الأسود، سأرسلها طاهرة، مشبعة بعنفوان الأوراس الأشم. سأرسلها نقية عبر الأمواج المتوسطية، لتستقر هرما جديدا سامقا يغسل العار الطارئ،

تململت حواسي، صرخن بي، أعلن كرهن لعنترياتي، قهقهن : «اصمت إنك لا تمتلك سلاحا غير الكلمة، والكلمة وجدت من وأدها، لن تجد ابن خطاب يندم على الوأد المتعمد في هذا الزمن !»

هززت كتفي، قررت أن أنتصر على حواسي، بحواسي، قررت أن أزيل كل الشوائب والنخرات، أبو الهول امتطى حصانا أسود جامحا، تحدى مخططاتي، قرر اغتيالها. انفرد بحواسي، واحدة واحدة،

أوقع بينهن، واحدة واحدة،

خدعهن واحدة واحدة،

ضحك منهن بتشف وجنون،

بحذر تسلل إلى حاسة السمع، لكي يبطل السمع، أسمعها معسول الكلام، طلب إليها أن تعمل في جبهة واحدة، أن تشذ عن أخواتها، مقابل أن يحيل الماء الذي يجري في عروقها عسلا،

هللت حاسة السمع لعرضه السخي، ابتدأت تنفذ أوامره،

غمرته نشوة النصر الأول، لعق شاربيه، قرر التمادي في تنفيذ مخططاته.

دنا من حاسة البصر، كي يبطل البصر، أغراها، خاطبها قائلا : سأنقذك من كل المناظر المؤذية، لن تشاهدي بعد الآن،

سوى المناظر المريحة، فلا فقر، ولا حرمان، سأجعل أنهارك تجري ذهبا !

انصاعت لعرضه، تعامت عن إدراك مرماه البعيد. انقادت وراءه كما تنقاد الأغنام إلى المسلخ.

رقص طربا، جرى نحو حاسة اللمس، ليبطل لمسها، تحسسها في رفق استغرب خشونة ملمسها، تظاهرت بألم مزيف، أخرج منديلا، مرره على مقلتيه، ربت عليها في حنان الأم الرؤوم، قال لها لا تحزني يا صديقتي: فلسوف أجعلنك تتلمسين التبر اللامع بدل التراب الباهت، سأقلب رمال صحاريك عسجدا!

لم ينتظر ردها، قرأ علامات الموافقة، مرسومة على ملامحها !

لم تعد الأرض تتسع فرحته، قرر متابعة خطته في عزل الحواس وتفرقتهن.

حث الخطى نحو حاسة الذوق، ليبطل كل ذوق، مناها بالطيبات. وقف يتأملها، أجفل من إطراقها، رمته بسهم ما كان يتوقعه. صاحت به :

اسمع يا هذا، إنني أتذوق العلقم في مقولتك أشكك في نواياك، اتق الله فينا نحن أخوات.

خشي أن تسمعه الحاسة الخامسة، أطلق ساقيه للريح، يعدو نحو الخامسة.

الخامسة صدته، نفرت منه نفور الصحيح من المجذوم ! خاطبته عن بعد: وهي تغطي أنفها بمنديل، لا تدن، أنني أشم رائحة النتن في أذيالك، لقد لعبت لعبتك القذرة. حاسة سادسة، انحدرت في سرعة متناهية، ضمت الحواس صاحت بهن :

هيا ، هيا ، نتصافح ونتعانق، هيا لنرسم بأيدينا درب انعتاقنا .

تسا ءلت واحدة: من تكونين، من أنت يا هذه ؟

تبسمت الحاسة السادسة وقالت: أنا أختكن، أنا القوة الكامنة فيكن. تكونت في بوتقة القهر، جبلت ذراتي من أصالة افتقدناها ، أسّسن: الحاسة الأبية.

حاسة السمع أجابت وهي مطرقة خجلا: تبغين المحال فلقد دق مسيلمة العصر أسفينا في دربنا !

حاسة البصر قالت: لقد استطاع أن يشقنا ويبذر بذور الفرقة بيننا .

السادسة أجابت: طبن نفسا مسيلمة غدا رمة نتنة بين الرمم. يلعنه التاريخ ما دام على الأرض تاريخ !

تنفست الصعداء، وقفت على قدمي، استللت قلمي من غمده. شرعته، أرسلت كلمتي تزغرد، سكرى منتشية فوق ذرى الأوراس الأشم، لتتعمد في المياه المتوسطية، ولتبني هرما جديدا ، يعري المسرحية المهزلة، وتنسيني، ضيقي، كربتي، غربتي.

الأرض عكسا تدور

- أرجوكم، أتركوني، لم أقترف ذنبا !
- شدوا وثاقه، ارموه أرضا.

لم تشد وثاقي وترميني أرضا يا شيخي الجليل، أقبل يديك أنا بعرضك، الله يستر عليك، الله.

- خبيث، لعين ! الآن صرت تعرف الله ! أدخلوا رجليه حبل الفلق، ارفعوهما، خذها، ها، هذه الأولى.

تألمت، صرخت، صرخت...

يا ويلي كم هي موجعة ! التهبت قدماي (دخيل يا شيخي، دخيل عليك) أشعر أن نارا نفذت إلى ذؤابة رأسي. اخترقت كل أعصابي، الإرادية منها وغير الإرادية !

خذها، هذه الثانية، أهي موجعة حقا كما تزعم ؟

- أي، أي، إنها أشد وجعا من سابقتها !

زملائي الصغار يراقبون المشهد الدرامي عن كثب يتفرجون يتضاحكون بشماتة ! عجيب أمر هؤلاء العفاريت الصغار !

إنهم كالجدايا في المسلخ تذبح أخواتها أمام أعينها وهي تتراقص حولها !

توالت عصي الشيخ، وتوالت معها صرخاتي ! هاك الثالثة، الرابعة الخامسة.

منذ الساعة الخامسة، وأنا أنتظر عودتك. لقد سئمت الحياة مع إبنك !

- ماذا فعل يا امرأة ؟

- ماذا ! وتسألني أيضا ؟. لو أني أعرف أن لديك مثل هذه الخِلْفة لما كنت رضيت الزواج منك قط ! ألف من كان يريدني ! إنه قدري. قدري !

- هوني عليك، كفكفي دموعك إنه طفل صغير يؤخذ باللين.

- لم أعد أحتمله ! ليغرب عن وجهي، أنظر، أنظر إليه، إنه يتظاهر بالمسكنة والبراءة ! اللهم أجرنا من هذا الجيل !

- ويلك يا ولد ! هل أبقاك الله لعذابي ؟

- إني لم أفعل منكرا، أنا بريء يا أبي، بريء !

- أنا بريء، أنا بعرضكم، والله العظيم بريء !

- هكذا أنتم أبنا الكلب، كلكم أبرياء حين تقعون تحت العصا !

- أقسم لكم بالرب الـ...

- دعنا من ربك ! خذها، لتعرف ربك، وتعرف أنه حق ! خذها منا. مادت بي الأرض، صرخت، توسلت، إنني مريض !

- صاح أحدهم: إلى جهنم، قلت لكم كل شيء ! شاركت فعلا في المظاهرات.

هتفت: تحيا بلادي، يحيا الوطن، يسقط الاستعمار ! إنني حاربتكم بالأمس وأحاربكم اليوم، وسأحاربكم غدا -إن أطلقتم سراحي- إنكم دخلاء، جيشكم جيش احتلال أتريدون أكثر من هذا الإقرار ؟!

- شيء واحد نريده، هو أن تدلنا على مكان رفاقك.

- لا مانع، رفاقي -هناك في الجبل- هناك في الريف، في المدن، في كل نهج، في كل بيت تحت كل نجمة ! لن نلين حتى نطردكم ونحرر أرضنا من رجسكم.

جاءكم خير، وجاءني شر. لكمات تقاذفتني. رفسات تعاورتني صرت كالكرة بين أرجل اللاعبين !

- اعترف، قر !

- والله العظيم لا أعرف غير هذا !

- والله العظيم احترت بأمرك. لماذا تكره الذهاب إلى الشيخ ؟

- كيف تريدني أن أذهب إلى الكتاب، وامرأتك عقدت حلفا مقدسًا مع الشيخ ضدي ؟ إنها تقتادني كل يوم إلى عتباته توغر صدره، يضربني، يضربني بدون سبب، أو لأتفه سبب ! إنني أخافه، أخشاه، أرتعد من مجرد النظر إلى فلقه !

اقتربت زوجة أبي لا لتنقذني أو تتشفع لي ولكنها لتشحن قلب أبي حقدا!

صاحت به: اطرده لا تبقه في الدار!

حدقت بأبي طويلا وكأنها تدرس وقع أوامرها عليه.

خاطبته بأنفة: لا تكرر علي اسطوانتك لقد حفظتها عن ظهر قلب ! بريء، يتيم، طفل صغير ! كلمة أخيرة، يا أنا يا ابنك!

لم تكد تنهي تهديدها حتى كانت يدا أبي تطوقاني وكأني كرة صغيرة. رفعني ورماني بعنف جعل يرفسني بشكل جنوني وهو يصرخ : هيا ألبس حذاءك واحمل عليقة القرآن الكريم، واتبعني لأوصلك إلى الكُتَّاب. ثم مال إلى امرأته يسترضيها.

انتهزت فرصة استرضائه لها، تواريت عن الأنظار !

لذت بكلبنا ملوح، أو بالأحرى كلب امرأة أبي بل مدللها، جعلت أمسد شعره أتملقه كي يتوقف عن النباح، همست بأذنه : (ربي يعيشك يا سي ملوح) اصمت قليلا، ربي يستر عرضك !

ربي يستر عرضك، دعني أفهمك،مرة واحدة !

صاح الشيخ بزملائي الأطفال، الذين مازالوا يرفعون قدمي بحبل الفلق: أن اتركوه، اقترب مني وهو يتهدد ويتوعد: أتعاكس امرأة أبيك ثانية أتعصي لها أمرًا ؟. إنها مثل أمك يا ...

شيئ ما اخترق جوفي، شيء ملتهب. أطرقت جعلت أفكر، ترى كيف تكون الأمهات؟. صحيح أنني لم أر لي أما ! لم

أحتم بأحضان أم. لم أذق طعم العاطفة السامية ! إلا أن ذلك لم يمنعني أن ألمس معاملة أمهات أصدقائي لأبنائهن، كنت أراقب بأسى كيف كانت الأم تطبع القبل على وجنتي طفلها. أو كيف تستقبله وهو يعود من المدرسة !

تنبه الشيخ إلى شرودي. زمجر، صاح : هيا أسرع، اجر في الساحة كي لا يتخثر الدم في عروقك. هيا ، خذ هذه العصا على قفاك هاه.

ألهبت العصا قفاي، جعلت أركض على قدمين ملتهبتين، أدور حول الساحة كبغل بليد مربوط على قوس غراف، يدور في حلقة مفرغة!

لا أدري كم دورة درت ! زاغ بصري ماتت فيه كل الأبعاد !

صوت الشيخ تسلل إلى مسمعي: إلبس حذاءك هيا ! إلبس، أسرع.

أسرع. أسرع يا ولد لأوصلك اليوم أيضا بنفسي إلى حيث الشيخ، لقد أخبرني أنك هربت منه بالأمس !

الفرار، سبيلي الوحيد ! بل هو سلاحي الأمثل للخلاص، تواريت ثانية. ابتدأ أبي عملية تحر ومطاردة بحثا عني.

- يا عبد ! يا عبود ! يا عبيد ! أين أنت يا ولد ؟.

- يا مالك، هل رأيت إبني (عبود) ؟.

- لا أعلم لم أره !

- أنت يا سالم، يا عمر، يا مليكة، يا زينة !

- لم نشاهده يا عم !

عاد والدي إلى الدار، لم يعثر لي على أثر ! بادرته زوجته بقولها: انصت، أسمع ملوحا يهر ثانية ! اذهب إليه وسله عن عبودك ! ربما وجدت عنده الخبر اليقين !

- أجننت يا امرأة ؟. صدق من قال : (قاصرات عقل ودين) ! أتريدين مني أن أحدث كلبا ! أأنتصب قبالته بأدب جم وأسأله من فضلك يا سيد ملوح هل رأيت ولدي ؟ هيا اغربي عن وجهي. دعيني أتصرف بعقل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم !

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، يا رجيم، لماذا ضربت زميلك وأسلتَ دمه هكذا؟ خلعت حذائي، استلقيت أرضا استعدادا للفلق ! لكن الشيخ اعتبر تصرفي هذا إهانة له ! شدني وأقعدني، طلب مني تبرير عدواني !

بلغة التحدي أجبت الشيخ : رفضت الإهانة دافعت عن نفسي، هو الذي ابتدأ العدوان.

استلقيت ثانية على الأرض ! شرّعتُ رجلي لفلق مؤكدة !

انفلتت الكلمات دراكا من فم الشيخ. سددها صائبة نحوي، هزت كتفي ! شعر شيخي بحرج ! فكأنني فتحت ثغرة في كبريائه ! ارتعد وصاح: كان عليك أن تسامحه ! إن المتسامحين في أيامنا كثيرون ! هل أنت أفضل منهم ؟ هيا للفلق !

فلق، فلق، فلق ! قل أعوذ برب الفلق ! يا شيخنا الجليل ألا تتقن لغة غير العصا والفلق ؟ لن أجعل قدمي نهشا لفلقك بعد اليوم ! سأقايضك (العافاريم) هه. تفضل.

بحلق الشيخ وتوسعت حدقتاه ! لا تستغرب يا سيدي إنها سنة استننتها. فأنت مثلا تعفو عن المذنب منا مقابل عفاريم واحد. (و العفاريم كلمة تركية معناها: مكافأة).

- فعلتك كبيرة يا شقي !

- أيها الجني، لن أعفو عنك لو قدمت لي كل (عفاريمات) الأرض ؟

أجبت بثقة : ألا يعتقد شيخنا أنه بجانب الحق ويناصر الظلم ! صمت الشيخ قليلا ثم أردف : ولكن من أين لك كل هذه (العفاريمات) ؟

نصر الله شيخنا وأبقاه، هي من فضلك، وهل غيرك يقدم لنا مثل هذا النوع من المكافآت العينية ؟

كنت ألاحظ على الشيخ انطباعات غريبة. وجهه يحتقن تارة ويصفر أخرى !

يقعد تارة، يمشيِ بعصبية تارة أخرى ! فجر كل حقده عليّ. صرخ بي : كذاب. أثِرْ، من يصدق أنني أعطيك، وأنت بالذات مثل هذا العدد ؟

ولما كانت شحنة الشجاعة الطارئة لا تزال تمدني بنفس من طاقتها. أجبته بهدوء وقد انفجرت أسارير وجهي : كنت –يا

سيدي الشيخ– قد اشتريت هذه العفاريمات من زملائي وادخرتها لمثل هذا الموقف الأسود !

دمدم الشيخ. نطق مقولة غريبة كانت فوق مستوى تفكيري : لقد بيع كبارنا في سوق النخاسة، فهل سرت العدوى إلى صغارنا ؟.

اسمع يا ولد إنك خطر ! أفكارك وباء ! تصرفاتك داء ! عدوى سارية ! سأفصلك وأفضح أمرك إلى خالتك خديجة امرأة أبيك !

– أرجوك يا ملوح لا تفضح أمري إلى امرأة أبي ! كف عن النباح ! إنك الوحيد الذي يمكنني أن أعقد صلحا معه في هذا الظرف العصيب الذي أمره.

دعني أهمس في أذنك بضع كلمات، لا، لا، لا تكشّر عن أنيابك هكذا ! عو، عو، عو، يا سبحان الله. لم هذا الإصرار، لا تهمهم، ألا يشغلنك غيري ؟. أهمد قليلا !

هكذا (برافو) ملوح فهمت أنك بدأت تشفق علي يا ملوح !

ملوح ملوح نباحك متواصل اليوم على غير عادتك. أتراك جائعا يا عزيزي ؟

الحق معك، وجبتك تأخرت، دونك مالذ وطاب، لحم طازج قطعة خبز شهية ! ماء من العين، لا تعو فلن يزعجك شيء بعد الآن يا عزيزي ملوح !

عزيزي ملوح ! محسود يا ملوح ! يُقَدَّمُ لك الطعام الشهي والماء القراح، يمسد شعرك، تحنو عليك سيدة الدار تلك بقولها عزيزي ملوح،كل هنيئا ، واشرب مريئا ، أنا أحوج منك إلى طعامك وشرابك، لم أذق لقمة زاد منذ البارحة، إنني جائع، زادي الوحيد المزيد من اللكمات، وسيلا من الشتائم !

أستسمحك عذرا (يا ملوح) لقد سال لعابي، بدأت أفكر جديا في سرقة شيء من طعامك !

أنا متأكد أن جريمة كهذه غير محرمة - وأعرف أن الشريعة تبيح للجياع استلاب أقواتهم.

لكن لا، اطمئن يا ملوح فالغدر ليس شيمتي، اطمئن فسأجوع وحدي، لأنني اعتدت الجوع منذ ولادتي، حتى ثدي أمي لم أشبع منه !

باطراقتك بإسبال عينيك، تحاول أن تقول لي شكرا ، شكرا يا ملوح شكرا.

شكرا لك يا صديقي على أريحيتك، إنك تقاسمني شطيرتك ضاربا وصية أمك المتكررة والملحة لكي تأكلها وحدك. لا تشارك أحدا. كم أنت شهم يا صديقي، تنبه الشيخ إلى حديثنا الحامي الهامس، أن لديه قدرة خارقة على اكتشاف أخفت الهمسات، وتعيين مصدرها بكل دقة. فصاح كعادته : حتما هذا أنت يا عبد، يا لعين، لا يوجد غيرك يحدث ضجة !.

أجل يا شيخي هذا أنا إنني أحدث صديقي عن الخميسية وعن الزيادة التي بعثها لك أبي، تبسم الشيخ، دس النقود في جيبه، ربت على كتفي، داعبني بقوله، (عافارم) عزيزي عبدو، إنني أحبك رغم تصرفاتك. إنك مظلوم، صحيح إنني أضربك غير أنني كنت رؤوفا بك ولهذا كنت أختار لضربك من العصي أصغرها وأطراها !

مظلوم والله إني مظلوم يا ملوح، جائع ظمآن، أريد جرعة ماء، ليتني ألعق قطرات من إنائك، جوفي يلتهب، الخوف يزيدني عطشا، أتراك تحس بذلك يا ملوح ! معذور يا ملوح. لم تجرب يوما الجوع والعطش والظلم !

- عو، عو، عو،

- ملوح تكاد تكشفني،

أنت أيتها الخنفساء اللعينة، أف لك، ابتعدي عني كيف تسنى لك الصعود فوق أسطح المنازل، وبين هذه القباب بالذات ! خنفسة ثانية كدبابة عدو تدب نحوي! ثالثة، رابعة. تزعم جداتنا أن العقارب تقتفي أثر الخنافس، فإن صح زعمهن فالويل لك يا عبد الشؤم ! أية لعنة ستحل عليك. الويل لك إن لسعتك عقرب، إما أن يميتك سمها أو يعيدك صراخك إلى جحيم امرأة أبيك!

جحيم متقد يغلف جسدي، آثار العصي بخطوطها الحمراء والزرقاء والسوداء تكويني. زمجرة (السرجان) زعيق (اليوتنان) تزيدني ضراما على ضرام.

قر، اعترف، ما هي ثروتك؟ أموالك، مقدارها، نوعيتها؟ حرر كل ذلك على هذا القرطاس.

ببرودة اليائسين، كتبت بيد مرتجفة على القرطاس: أمتلك من الدنيا شقاءها، ومن الحياة تعاستها، ومن الآخرة رحمتها التي وسعت كل شيء! صرخ أحد الجلادين: (مون يوطنان، إيلي كوشون)، إنه خنزير يسخر منا سيدي الملازم.

انهالت علي الضربات من كل الاتجاهات، مختلفة الأشكال والألوان والأصناف، أتسخر منا يابن الكلب اعترف، قر! ماذا تملك؟.

أمتلك قوافل الخنافس التي لا تزال تجوب شوارع مخيلتي!

أمتلك أسراب الناموس التي كانت تحلق فوق القباب!

أمتلك فيلق العقارب الذي سيغزوني!

أمتلك الأخيلة السوداء، سعلاة، غولة أبالسة، رعب، صورة زوج أبي!

أمتلك زمجرة (السرجان، واليوتنان، والكابتان). أمتلك أشياء أخرى معلقة بالذاكرة موشومة على القلب،

تذكرت في تلك اللحظات، وأنا أستعرض هذا الشريط المأساوي إنني وقفت يوما أمام جبروت الشيخ في صباي فلم لا أجرب ذلك الموقف الآن.

بشجاعة القانط، استدرت نحو جلادي، استجمعت كل قواي الكامن منها والظاهر، خرج من حنجرتي صوت مشوب

بالحشرجة: لن أخشاكم بعد اليوم لن تجدوا عندي ما يفيدكم لا في الخير ولا في الشر.

فلقد غدوت كساعة جدارية أثرية لم يبقِ الزمن منها سوى الهيكل والرقاص، وأغرودة بلادي، بلادي، بلادي،

فقاعات الماء تتراقص داخل زجاجة السيروم المعلقة بقربي، لتندفع إلى مسامات جسدي،

الإبرة المنغرزة في وريدي ترقد مسترخية، اللدائن التي تعمم رأسي تجعل نظري ينكفئ في دوامة قاتمة فيدور دورانا عكسيا.

يد الممرضة تمر على جبيني، كلماتها تسري كالنسيم في جذر ذاتي.

- حمدا على سالمتك عزيزي،

عزيزي، عزيزي، أين ومتى استمعت إلى مثل هذه الكلمة الموسيقية ؟. لا أدري لأن السمع هو الآخر بدأ يخونني!

أتسمعنا يا سيدي عبد ؟ اصغ جيدا، بشراك لقد ثبتت برا ءتك. نحن آسفون، قاتل الله الوشاة أبناء الحرام !

- سيدي الكابتن، اطمئن، إن (عبد) صاحبنا ولن يؤاخذنا، لكي يثبت نقاء سريرته سيكتب لنا تصريحا عن حسن معاملتنا له، صحيح أننا ضربناه، واستجوبناه طويلا، غير أننا كنا نرفق به أحيانا ؟ حرر الوثيقة، حرر سيد عبود، هيا، هيا،

- هيا سيد عبد، حرر الوثيقة، حرر سيد عبدو !

- كان يسعدني لو كان في مقدوري أن أمسك القلم.
- هيا خذ القلم، حرر الوثيقة عزيزنا عبدو !
- كان يسعدني لو كان في مقدوري أن أمسك القلم.
- هيا خذ القلم، حرر الوثيقة عزيزنا عبود !
- صحيح أنني كنت أضربك بالفلق ولكن بعصا طرية صغيرة !
- حرر الوثيقة عزيزي عبدو، هيا عزيزي !

عزيزي، عزيزي (ملوح) حرر لهم الوثيقة نيابة عني، إنني أحس أن كل شيء حولي يدور، الأفق يدور، الأبعاد تتلاشى، تدور. الأرض عكسا تدور، تدور !

الجزائر في 19 ربيع الأول 1409 هـ

30 / 10 / 1977 م

النباح المباح

آها أيها الشعب العظيم ! لك في نفسي أحلى ا لذكريات، التي تندرج في عمق الزمن السحيق. من الثلاثينيات. فالأربعينيات وما يليها وحتى آخر العمر. لأن الانطباع الموشوم بأحرف المحبة لا تزيله أية مؤثرات.

مؤثرات عدة يا حرمنا المصون. تجعلني أطري. وأسهب في الأطرا ء.

وستقمعين عناصر الشغب التي تثقل كاهلك. أراك تتثا ءبين. ربما لكونك مللت حديثي. إنك بعيدة عني الآن جغرافيا ؟

جغرافيا ، نحن بعيدون يا بني، لكنني أشعر أن لهذا الشعب حرفان انغرسا في ذاكرتي ورسما في حياتي ضيا ءات، وأي ضيا ءات!

الضيا ءات مازالت حبلى ، ستنجب،ربما أكثر من توأم، فالحب لا يعرف الحدود ويزداد طردا بحسب سلسلة هندسية !

الأنغام السماوية كانت تنساب إلى وجداني مشبعة بأريج قدسي عمدته العذراء، التي كانت تميس بأيقونتها كملاك يتضوع عطرا.

وميض عينيها اللؤلؤتين يحكي ألف رواية وألف سفر يتلو (هيلالويا من الرب نطلب) والمطلوب. شامخ عن يميني يشخب دما. لكن عينيه. مازالتا تومضان كعيني فارس يجيد فن الفروسية ويبرع في فن الترتيل القدسي: «المجد لله في الأعالي وفي الناس المسرة وعلى الأرض السلام».

السلام توهج بشمس وضاءة ينبثق من ذواتنا أملا وحلما. فنطرح السلبيات ونقتنص الإجابيات. رغبة. لتبقى حمامة السلام، تعانق الشمس وتقبل فادي البشرية، يسوع عليه السلام. فتزداد الشمس سناء وإشراقا،

شمسنا تشرق، شمسنا تغرب. دائرة الزمن تدور، تطحن !

شروق، أفول، وبين اختزالات الزمن تنحسر الرؤى. ويستمر وميض الأمل الكبير يخترق جدارا شاهقا، ويستمر تمزق الشرانق، يزول الضباب، فأطل على ميونيخ أراها تتلألأ من عل.

لكزة قوية من يد زوجي المصون. كادت تخترق خاصرتي أعادتني إلى ساحة وعيي بعد أن كنت سابحا هائما، كما يهيم بوذي متعبد يجثو تحت قدمي الإله، فعرفت أنني مازلت في السماوات العلا، !

من السماوات إلى الأرض التي كنت أحن إلى رؤيتها. يلازمني صديق عمري، قلمي الغالي المدلل الذي ما فتئ يدون ما يصله بصري فبالنظر وبالرسم تكتمل الآية. وتتوضح الصورة. كيف لا، وها أنا، أرى، أسمع وألمس !

رجل فاره مديد القامة، كان يقف في آخر القاعة. يبعد عنا بضعة أمتار، يدخن بهدوء. اللفافة كانت تذوي بين السبابة والوسطى رويدا رويدا. كأنها «سئمت تكاليف الحياة» ! فجأة يحس النار تحرق أصابعه، يبحث عن المطفأة.

مطفأة السجائر تجثم مسترخية قرب أقدامنا. جاء الرجل متهاديا. وهو يحمل بقايا سيجارته دس العقب في المطفأة، غرزه بحنق كأنه يريد أن يتأكد من وفاته، لثأر قديم بينهما. ثم عاد من حيث أتى. لكزت (أنا) زوجي -هذ المرة) انتقاما. ومنبها لها إلى ما يفعله الرجل المهذب، مشيرا إلى كونه الأدب. ليس قولاً، إنه فعل كما ذكرت، يمارس فيه الأدب، سجلي في ذاكرتك يا امرأة. واذكري. أن ليس فرقا بين رمي الأعقاب. ورمي الأوساخ !

الأوساخ اعتدنا أن نرميها نحن في كل مكان. وحين التحدث عن الأدب مثلا، نطنب في الادّعاء، فنتبجح ونقول: « النظافة من الإيمان، في حين أن أوساخنا تحتل كل حيز من حياتنا !

إلى أن ندرك أن من شعائرنا السامية «النظافة من الأيمان. نحتاج إلى دراسة ميدانية. لا أن نبقى كالبلهاء. نعجب

بالتصرف الحضاري للغير هذا النموذج الحضاري كان بين ظهرانينا يوما ما شعارا وممارسة.

ممارسة الانتظار. في لحظة من لحظات الترقب. تستدعي حسا انضباطيا وصبرا عالي القدرة على التحمل.

الحقائب مازالت لم تصلنا، السماء خارج المطار مازالت تهيل الثلوج تلو الثلوج. صار كل شيء أبيضا. علي امتداد الطرف، أخي وزوجته الألمانية يلوحان بأيديهما وهما وراء الزجاج الشفاف.

زوجتي بجانبي مسترخية على مقعدها، تكثر التثاؤب. ملت الإنتظار!

الملل كاد يتسرب إليَّ، لولا اهتمامي بتدوين ما يستحق التدوين!

خرجنا من قاعة الانتظار. ابتدأت حفلة العناق والقبل، وابتدأت مسيرة الألف ميل نحو بطحاء «إيبرسبيرغ».

زوج أخي، كانت سائقة ماهرة،تتقن فن مراوغة الكتل الثلجية، مثلما كانت تتقن توزيع الابتسامات علينا- لكي تشعرنا أننا لسنا ضيوفا- وبذلك تمتص التكلف المصطنع.

أخي -هو الآخر- يقاسمنا الأدوار. إذ بدأ يشرح لنا ويطنب في شرح كل ما يمر بنا، أو نمر به، رغم أن معظم ماكان يتحدث عنه ووصفه لنا كان جاثما تحت الثلوج الكثيفة، التي ستظل هكذا عدة أسابيع.

أسابيع، وأسابيع يا بني تحتاجه عملية إزاحة الثلوج. وهذا التقدير الحسابي بنيته على ما كان يجري عندنا إذا ما أمطرت السماء بعضا من ثلوج !

السرعة التي اخترقت أفق تصوراتي. جاءت لتبطل كل التخمينات وتمحو كل الحسابات. إذ في صبيحة اليوم الموالي خرجت إلى الشوارع، فإذا بالثلوج كشطت وعن الأرض أزيلت، فوقعت صريع الذهول والاندهاش لما وصلوا إليه من تطور تكنولوجي طوعوه لخدمة المجتمع !

ولدي الذي كان مصغيا إلي، وأنا أفسر له نتفا مما رأيت، عقب بلهجة ساخرة: وعندنا أيضا يفعلون الشيء ذاته «و ما فيش حد أحسن من حد» ضحكت وإياه حتى الاستلقاء.

حتى الاستلقاء ضحكنا حين كان أخي ينبه زوجه، تارة بالتلميح، وتارة بالتصريع طالبا منها تخفيف سرعة السيارة. فبقدر ما كانت هي ماهرة في السياقة كان هو ماهرا في الخوف والرعب والتشاؤم. ولكأني بها أدركت نقطة ضعفه ووضعت يدها على عقدته. لذا أخذت تعاكسه لكي تزداد ضحكا ويزداد نرفزة !

لم نشعر إلا ونحن نحط الرحال أمام قصر مضيفنا المشرئب. وسط سهوب في قرية إيبرسبيرغ» الهادئة الجميلة.

أول ما استقبلنا في الدار. شجرة عيد الميلاد. وهي تتلألأ مضيئة براقة وأكاد أجزم أن آلاف البيوت تنصب أشجارااحتفالا بذكرى ميلاد السيد المسيح عليه السلام.

حين ابتدأت أجراس الكنائس تدق، الساعة الثانية عشرة. استأذنت زوج أخي. لأنها ستؤدي الشعائر الدينية في الكنيسة المجاورة ولم تعبأ بالثلوج.

نحن الثلاثة أمضينا وحدنا ساعات سمر. نستعيد فيها ذكريات الماضي السحيق، في وطننا البعيد القريب، تذكرنا، تقاليدنا، طفولتنا، تنقلنا إلى وإلى وإلى، وبحثنا عن وعن وعن !

برنامج الغد، سيكون حافلا بالزيارات. وسيختتم بسهرة رائعة سنقضيها في قصر أحد الأباطرة، في قرية قرب الحدود النمساوية.

لم أسأل عن سبب اختيار تلك القرية النائية، لأن النوم قد سلط كل سيوفه والتعب قد هدنا.

كانت السيارة تنطلق بنا بأقصى سرعتها ميممة شطر «فيش باخ» والغريب أن الشمس كانت مشرقة على غير عادتها- وكأن الطبيعة لم تقم قيامتها بالأمس- فملأت الأرض والسماء بالرعود والثلوج والبرد القارس!

أخي لا يكف عن الشرح الممتع والمفيد، كأنني به يريد إشباع هوايتي، فأحب أن يملأ جعبتي ويغني مذكراتي.

فجأة تلبدت السماء بالغيوم الدكناء. اكفهر الجو، عبس كمجرم حاقد، ابتدأ الثلج اللعين يهطل مدرارا. كما القطن المندوف! عاد أخي إلى أسطوانته المشروخة فأخذ يعيد تنبيهاته ويكرر ملاحظاته : خففي السرعة، الطريق خطرة، يا إليزا انتبهي يا إليزا،

إليزا - كعادتها- كانت هادئة، تضحك لتضحكنا. فتزيد سرعتها ويزداد توترا لكأن السماء تآمرت على أخي، ولكأنها حسدتنا فاستكثرت علينا، سويعات نعيم وصفاء.

- أنظروا، أنظروا، هذه جبال الألب الشهيرة.

أنظروا، تأملوها جيدا تلك هي عذراء الألب، العذراء المستلقية على سفح الألب إنها تبيع جسدها لكل هائم متيم يقصدها، انظروها، هذا رأسها المكور، هذان نهداها النافران، تلكم ساقاها المشرعتان : ها هما ذراعاها تلوحهما في كل الاتجاهات. كأنهما تستقبلان، المعجبين الحالمين، وليس محالا على عشاقها الولهى، أن يتصنتوا إلى نبضات قلبها، وهي ترتل آيات حب لكل قاصد ملتاع،

خلفنا وراءنا عذراء الألب تحلم مثلنا، وهي مازالت ترنو بعينيها، كأنها ما أحبت فراقنا بهذه السهولة، وها نحن نحط الرحال في حدائق قصر الأباطرة المشيد منذ مئات السنين على أرض قرية «فيش باخ» وعلينا الآن أن نقضي ليلة سمر وأنس نادرين.

سمر، سمر، وأية ليلة سمر، إنها تعد من أبهج وأمتع ليالي العمر، لا لا، يا بني، لا تفغر فاك هكذا ! ما بك قد فتحته حتى صار يحاكي فم حوت ! ما بهما عيناك قد تحولتا عن محجريهما، حتى غدتا كما عيني الأحول !؟ أتعرف لماذا سموه أحول ؟

- لا يا أبتي ! زدني معرفة وطرفا !

- يقال، والعهدة على الراوي: إن هذا الإنسان، كان سليم البصر، لكن عينيه اختلفتا في وجهة النظر، فصار أحول !

ضحك ولدي بشدة، رماني بنظرة استعطاف، كأني به يتعجلني لكي أكمل له قصة القصر وأسراره.

- على رسلك يا ولدي، هذه هي قصتي مع القصر ! لقد سرنا في ساحته الخارجية الواسعة. التي تبلغ بضعة كيلومترات، فوق طبقة من الجليد الكثيف، وكأننا كنا نتبارى في الجري البطيء، حتى أننا كنا نجر أقدامنا جرا !

قبل المدخل فوجئنا بإطار خشبي مربع الشكل، لا يتجاوز ارتفاعه المتر الواحد، وعلى كل داخل إلى القصر أن ينفذ من هذا الممر الضيق والوحيد.

إلى هنا، والأمر لا يستدعي الاندهاش الكبير، إذ يوجد ما هو أكبر، الأكبر يا بني، هو أن الداخل، يجب أن ينحني ليلج إلى القصر، هذا الأمر، أمر الانحناء ذكرني بقصة أحد أمراء المؤمنين، حين أرسل وفدا إلى كسرى. الذي تعمد وضع باب

منخفض لكي يذل العرب، فينحنون أمامه وهم يدخلون عرشه، وهو يعلم أن العربي لا ينحني إلا لله عز وجل،

رسول أمير المؤمنين، تفطن للحيلة التي حاكها لهم كسرى، لذلك أحب أن يفوت عليه لعبته، فأدار ظهره إلى جهة العرش وصار يمشي إلى خلف. الأنفة العربية، راودتني لكي أرد المكيدة إلى نحورهم،

لا بد أن أرد المكيدة إلى نحورهم يا أخي. يا أخي لن أخشى أحدا !

- لا لا، لسنا معنيين، إفعل كما نفعل ! ثم أفسر لك الحادثة هيا قلدنا! الطابور طويل وراءنا ينتظر الانحناء.

تسمرنا في مكاننا حين سمعنا المنحنين ينبحون كالكلاب «حاشاكم» عو عو عو، لم نتقدم خطوة حتى غرقنا في الضحك،

- ما بكما، هيا، إنحنيا وانبحا مثلنا هكذا،. عو عو عو،

(عوعونا)، انحنينا، نبحنا كثيرا. ونحن نتمرغ على الثلج من كثرة ما ضحكنا ، حتى أننا لا ندري إن كنا ننبح أم نضحك. أم نبكي. لأن أعيننا غرقت من شدة الضحك والنباح ! المهم أننا انحنينا ونبحنا. واجتزنا الامتحان باستغراب حاد !

- لا تستغربا قصة «النباح المباح». لأن حكايتها. تدعو إلى الاستغراب الشديد. كان يا مكان، وكان الذي كان،و كان

الأباطرة قد تعاقبوا على القصر، جيلا إثر جيل. وهذا القصر بالذات، كان يقع تحت السيادة النمساوية فترة. وتحت السيادة الألمانية فترة، بحسب المناخ السياسي، والقوة العسكرية. أما اليوم. فهو جزء من التراب الألماني.

الذي خلد هذا القصر وجعله قبلة السياح، هو هواة «العوعوة». الإمبراطور الشاب الذي كان آنذاك قد وقع أسير حب فتاة رائعة الحسن فاتنة الجمال، أحبها حب عبادة، فتزوجها وعاش معها أحلى أيام عمره،

أحلى أيام عمره سريعة. لأن ساعات الصفاء معدودة ! فالدهر خؤون يقلب ظهر المجن، فلا تغرنك بسمة الزمن يوما ما ! وهذا ما حدث لهذا الإمبراطور. لأن إشاعة بدأت تتسرب عن علاقة غرام بين الإمبراطورة وأحد كبار ضباط الإمبراطور. وانتشرت الإشاعة حتى بلغت مسامع الإمبراطور ذاته. وفي سورة غضب أمر بإعدام العشيقين. فحز رأسيهما أمام الملأ. وفوق هذا المكان، عند البوابة المربعة.

بعد أشهر، تبين أن الإشاعة كانت مغرضة. وأن الضابط كان بريئا وأنه لم يخن سيده. والزوجة وفية. لم يثلم شرفها أحد. وتأكد الإمبراطور أن الشعب قد شنع به. لذلك قرر أن ينتقم من هذا الشعب العاق، وأصدر أمرا يقضي بإقامة الباب المذكور وبالحجم ذاته، أي بوضعه وشكله الحاليين. وأمر جميع رعيته صغيرا كان أم كبيرا. عظيما أو حقيرا أن يمروا منحنين

من الباب إياه صباحا ومساء وهم منحنوا الرؤوس وينبحون باستمرار.

عو عو عو، اعتبرها الشعب. آنذاك سبة وشتيمة لكل الناس، وبتعاقب الحقب أضحت لعبة يتندر بها المتندرون طلبا للمتعة والانشراح.

– طلبا للمتعة والانشراح، معنى ذلك أنكما تمتعتما وانشرحتما ونبحتما عو عو عو.

– أجل يا بني هذا ما حصل. فتلك طقوس النباح المباح يا ولدي، وهي تعتبر حاليا جواز سفر لدخول القصر، وهي ذاتها تستقطب السائحين من كل حدب وصوب. أكلنا وشربنا، رقصنا وتمتعنا حتى الصباح ! حين غادرنا القصر من الباب المربع بعد أن انحنينا ونبحنا. غير أننا لم نتحرج هذه المرة. ربما لأن وقع السبب، والمسبب قد خففا عنا وقع الحدث أو لكوننا قد استسغنا اللعبة إياها!

أنتما استسغتما اللعبة يا أبتي، وأنا شوقتني للعبتها يوما ما.

– من يدري، ربما تتاح لك متعة ممارسة لعبة، (النباح المباح).

عندما تضيء الورود

لست من هواة الزهور، لم أفتح عيني بطفولتي على حديقة ذات ورود، كل ما كنت أتعثر به، (كتب وكتب وكتب) لكن الظروف شاءت أن أكون عاشق الأزهار. ومتيما بشم عطرها، الذي غدا يؤجج في نفسي النشوة.

يوما اثر يوم ازداد تعلقي بالورود، فأمر عمدا أمام حديقة البلدية المزهرة، لأنها كانت في ربيع دائم ما عدت أكتفي بالنظرة العجلى أو الإيماءة الموحية، بل وجدتني أندفع لألمس الأزهار، أو أشم أريجها !

ما فكرت مرة أن أقطف زهرة لأزين بها صدري، أو انظم باقة أصدرها المائدة، فلعمري كنت أعتبرها جريمة، لا أغتفرها لنفسي ولا لغيري، لكوني أؤمن بمقولة (برناندشو)، حين أجاب سائلة عن عدم قطفه الزهور: «الزهور أبنائي، فهل رأيت إنسانا يقطع رأس ابنه ليتزين به ؟!» تلكم فلسفتي في حب الزهور إلى أن شببت عن الطوق.

تشاء المصادفة أن يهديني معلمي الجليل بطاقة تهنئة لتفوقي، وقد زينت برسومات الورود، آنذاك كنت صغيرا، لم تتوغل الورود في قائمة المتميز !

الورقة الوردية البيضاء، لقيت ترحيبا في وجداني، توغلت في المسام والذرات. وضعتها في إطار وعلقتها في مكان بارز، أتفاخر بها وأتباهى. الغريب في هذه الوردة أنها مازالت تحتفظ بتألقها ونضرتها، فلم تطلها التجاعيد كما طالتني، ولم تحفرها أخاديد الزمن،

لم أبال بتقريع الأصدقاء، أو لوم الآخرين لكوني أحتفظ بوردة ورقية، وما دروا أن لها مكانة خاصة بنفسي، فازداد تعلقي بها، وانقلب هذا الحب الخاص، إلى حب الزهور الطبيعية بل اهتدبت بها إلى متاهات الجمال.

وإنه إن كانت للزهور مكانة خاصة تلبستني لدرجة الوله، فإن للوردة الورقية منزلة لا تداني.

لا أنكر أن الكتب عشيقاتي السابقات أحسسن بجمرة الغيرة من الورود لأنهن الغريمات الطبيعيات، والضرات المنافسات !

سافرت إلى بلد بعيد لإجراء عملية جراحية، خلفت ورائي، كتبي تتعانق على الرفوف، ووردي تتعانق في الهواء الطلق، وأسلمت نفسي لمبضع الجراح.

توالت الأيام وأنا بين الحياة والموت، واليأس القاتل الذي لم ينقذني منه سوى كتاب أطالعه، صرت أكره الأصوات الصاخبة، حتى ضحكات الممرضات وهن يجتزن الممرات.

لمرضتي دالة علي، لصوتها جرس يحتل الأماكن البارزة من ذاكرتي فلم أتضايق منها. حين كانت تأمرني بالخلود إلى الراحة، وإلقاء الكتاب من يدي، قائلة : «صار وقت الرّاحة يا أستاذ » الأستاذ يمتثل لأوامرها، رغباتها أوامر. فامنح الكتاب فرصة.

حين تدبر، تواكبها نظراتي الفضولية التي تلاحقها حتى آخر الردهة الطويلة ولا أعود أتبين منها سوى لباسها الأبيض الناصع الذي يذكرني بوردتي البيضاء فتتداعى الذكريات تحلق عاليا في سماء بلدي الحبيب.

صبيحة يوم، فتحت عيوني وإذا بمرضتي اللطيفة الجميلة تداعب كتابي بأناملهاالناعمة، تلفت إلى سرير زميل مريض يشاركني الغرفة، فوجدته خاليا،.

فرحت من أعماق أعماقي، لأن الحجرة قد احتوتني وإياها، وحيدين، منذ ستة أشهر، إننا الآن وحيدان، لا ثالث بيننا سوى ! حاولت أن أكلمها، تلعثمت، خانتني الشجاعة !

كم رسمت لهذه الخلوة، كم هيأت من كلمات، لم أفتح شفتي، وهي لا تزال تمضي في تقليب الكتاب ولا أخالها إلا متشاغلة.

فجأة واتتني رباطة جأش طارئة، اعتدلت في جلستي ركزت نظارتي وقلت:

- صباح، ال، ال، الخير.

- صباح النور كيف الصحة اليوم ؟

- الحمد لله.

عادت إلى الكتاب تتصفحه كأنها استهوته !

- هل أعجبك الكتاب ؟

- جدا .

- حسنا ، ألك هواية مثل هوايتي، سأهديه لك،

- شكرا .

تشجعت أكثر. مادمت قد سقيت أكسير رباطة الجأش فقلت :

- هل لي أن أطلب منك شيئا ؟

- بكل ترحاب، أهلا وسهلا ، تفضل.

- كثيرا ما تمنيت أن أخلو بك مثل هذه الخلوة لأحدثك، هل يضايقك حديثي ؟

- لا ، تفضل،

- بصراحة (و الصراحة راحة) كما يقولون، فمنذ دخولي المستشفى وأنا أشعر بأنك الإنسانة الوحيدة التي تتصف بكل معاني الإنسانية، وهذا ما حداني، أن ألتمس المساعدة والعون

منك، إنني، بحاجة إلى حديثك العذب، إنني أضيق ذرعا بالغربة والعزلة، ولا أحد غيرك يؤنسني، كوني مؤنستي،

- سأهبك كل ما أملك، فأنا رهن مشيئتك.

رن، رن، رن، جرس الإدارة يدعوها ، حدثتني بسرعة.

كان شتاء ستة وخمسين وتسعمائة وألف، شتاء قاسيا قارسا شديد القر، يأكل الأصابع، ينهش الأنوف، فلا بد من أن ألوذ بفراشي أحتمي، وبالمدفأة أستنجد.

صبيحة يوم، أورد أحد الزملاء في غرفة المدرسين هذا الخبر للتفكه والتندر فقال: «تحيك إسرائيل ودولتا الاستعمار- آنذاك- بريطانيا وفرنسا. لغزو مصر العربية،» كنا نظنها مزحة، غير أن الأحداث تعاقبت متواترة نازفة، الخبر صار يقينا ، معارك محتدمة سيطرة الطيران المصري! نصر لنا ، اندحار لأعدائنا كرامة بعد مذلة، قوة بعد ضعف.

آنذاك، أدخل الإطمئنان إلى نفوسنا -نحن الشعب العربي- تصريح (إيدن) المعروف «لن تستغل بريطانيا الصراع الناشب بين مصر وإسرائيل» ، كذا -كم تمنيت أن أعلق صورة إيدن إلى جانب صور تشرشل، إيزنهاور، عمر برادلي، ديغول التي كانت دول الحلفاء توزعها إبان الحرب الكونية الثانية.

ما صدق الحلفاء يوما -وكان الغدر المتوقع عبارة عن إنذار بريطاني فرنسي، وجاء الرد الملحمي من الشعب العربي -من المحيط إلى الخليج-.

كم تمنيت يومذاك، أن تكون تلك الرسومات عندي لأشبعها تمزيقا وتعفيرا، اهتزت المشاعر، وحدة آمال وآلام، وحدة مصير، كل عربي، أبناء مدينتي مستنفرون يحملون السلاح. أنا الوحيد غير قادر على مجاراتهم، يقولون عني: إنني مريض، لكن قنابل الأعداء لا تفرق بين صحيح شاكي السلاح وبين مريض منزو، هل للحياة نفع بدون كرامة !؟

قضيت ليلتي تلك معذبا مسهدا أتلقى عذل نفسي وتقريع ذاتي، أتقلب تقلب المسلوب! لم ينقذني سوى صوت المؤذن وهو يكبر لله وعزته : (الله أكبر، الله أكبر) ما كاد يصل إلى حي على الفلاح حتى ابتدأت حركة تمور في كل بيت، في كل شارع، حتى أخي الطالب اليافع، يرتدي ثياب الميدان ويحمل البندقية باعتزاز -و إذا بالأنفة تقحمني، وإذا بي أهب منتصبا أرتدي ثيابي -رغم الظلمة الحالكة- يتدخل أخي مشفقا : الجو قارص أنت مريض ! جسمك لا يحتمل مشاق التدريب !

لم أبال، انطلقت إلى الملعب البلدي حيث يتجمع المقاومون.

لم أشعر ببرد. لم أشعر بتعب ! كنت أسير بصعوبة وأنا أحث الخطى كي أتبين هوية الأشباح الزاحفة من كل جهة.

توجهت مباشرة إلى قائد المعسكر حييته كما يفعل جندي محترف، رجوته أن يقبلني متطوعا في الجيش الشعبي، لم يخيب أملي، سجل اسمي ناولني بندقية حربية. وبزة عسكرية،

ارتديتها فوق لباسي، ثم انضممت إلى الصفوف الطويلة، وصلتني الأوامر : أمام سر، يسار در، وراء در، واحد إثنان، واحد إثنان، ثلاث أربعة، وقوف قف، هبطت الأقدام تضرب الأرض بقوة، يصيح الضابط مزهوا: يا للعظمة !

انتهى تدريب ذلك اليوم، قفلت عائدا إلى المنزل تعمدت أن أسير في الشارع العام -كنت أتمنى أن يراني كل الناس، كل المستعمرين !

فجر اليوم الثاني، أدرت مفتاح الكهرباء، كي ألبس ثياب الميدان، غير أن النور لم يتألق ! الدار مظلمة، الشوارع تلفها العتمة، تأكدت أن إجراء وقائيا قد اتخذ. لم أستطع أن أتبين موطئ قدمي. لأن الظلام دامس،

بصيص أمل لاح لي وسط الديجور، بصيص ضوء انبعث من أصيص ورد القرنفل، لبست بزتي العسكرية، انطلقت مسرعا، تعثرت قدمي بشيء لم أتبينه !تركته ومضيت إلى ساحة التدريب.

لدى دخولي الدار، أجفلت، أصابتني رعشة لأنني رأيت وردتي تنزف أرضا وكنت قد دستها بحذائي العسكري الثخين ! عجنت الورود ، ذوت إلى الأبد.

في اللحظة التي كان يشيع فيها أبناء العروبة، آخر جندي استعماري عن بور سعيد مجللا بالخزي والعار، كنت أشيع وردتي الشهيدة التي ساهمت لحظة في إنارة درب مقاتل.

في اليوم الثاني سلمني ساعي البريد رسالة من صاحبة الورد الأبيض، كل الرسالة عبارة عن جملة واحدة : «أنا والورد الأبيض في طريقنا. انتظرنا».

عاد لي الأمل من جديد، أملي بلقاء أمل، وأملي الأكبر بوحدة عربية، كبرى.

سوداء باريس

لعلها المصادفة الفذة الوحيدة، هي تلك التي جمعتني بحسناء سوداء طوال حياتي! متى؟ أين؟ كيف؟ كل أدوات الاستفهام، والاستفسار يمكنها أن تبرز دفعة واحدة !

أنا لن أجيب. سأترك الأحداث نفسها ترد على كل الاستفسارات إن شاءت. ذات صباح مشرق، شعرت بإرهاق، خرجت إلى الشارع، خائر العزم. وما كان إعيائي ناجما عن جهد بذلته فقط، إنما لكثرة ما عملت خلايا دماغي في السويعات السابقة، فأخذت أتنقل كالواله بين رسومات وتماثيل وعجائب متحف اللوفر في باريس، وكلما طال مكوثي، إزداد فضولي في دراسة سلم الأنفاق (المترو) بحسب التسمية الغربية، رحت أجوب المتاهات المتعاضلة، دليلي خارطة صغيرة، لا يستغني عنها أجنبي، فبواسطتها يتعرف على أيسر سبل التنقل.

ثلاث طبقات تحت باريس، بمعنى أدق، ثلاث مدن عامرة، تفوق كثافتها السكان القاطنين فوق سطح باريس، وعلى أول

مترو، وعلى أول كرسي تكومت. ابتدأت أسترد أنفاسي، بينما ناظراي يمسحان الخريطة كي أعين وجهتي المقبلة الصحيحة.

خانتني معلوماتي، فلم أهتد إلى المكان الذي أقصد، لذلك توجهت بسؤالي إلى أول جار يشاركني المقعد.

الأقرب مني أنثى، سوداء، هيفاء، ما إن لمحتها، حتى رحت أصحح خطأ مفهوم قديم. كنا نتعامل به، وهو أن السوداوات، بشعات والشقراوات البيضاوات حسناوات مليحات. وتكاد تكون هذه نظرية سائدة لدى السواد الأعظم من البشر. هذه الجارة، ذات البشرة القاتمة التي تفوق دكنة الليل تمتلك وجها سماويا ساحرا. تقاطيعه تسلب اللب، وتتيم الممتنع !

- أمسكت لجام الذاكرة، شددت الرسن، حدثت نفسي:

-ما شأنك يا هذا بالحسن والجمال وقد بلغت من الكبر عتيا، دعها وشأنها ! لالا، عليّ أن أحدثها، أطلب معونتها، ما المانع، وكل واحد منا يحتاج للآخر.

فلسفت رغبتي بحسب قناعتي. فانتصر أمر الذاكرة. حييتها بأدب جم. كلمتها بلغة تدعو إلى الضحك، نظرا لقزامة لغتي الفرنسية، سألتها عن الموقع الفلاني، أين يقع، كيف أتمكن من الوصول إليه بسهولة ؟

تبسمت وردت :

أيها السيد المحترم، انظر هنا، هنا باتجاه السهم، تتبع أصبعي على هذه الخارطة، في هذه المحطة، اهبط، ثم بدل

الخط. بقطار آخر. مستعينا باللوحات الضوئية، فهي ترشدك وتهديك بسهولة.

ألف شكر أيتها الآنسة اللطيفة.

رمتني بابتسامة شكر أيضا، كانت أكثر تعبيرا من الكلام. لكنها قرأت على وجهي علامات الحيرة وعدة إشارات استفهام.

لم تتركني في حيرتي، سألتني: يبدو أن السيد غريب !

- ما الغريب إلا الشيطان.

- عفوا، لا أقصد إزعاجك، أنا متأكدة أنك لست فرنسيا، حديثك المضطرب، شاربك الكث، تصرفاتك، محاولاتك جرفتني إلى ساحتك !

أخذت أتمتم، ربما تكون هذه الإنسانة منجمة، أو عالمة نفس ! لذا قررت مصارحتها، والرد على استفساراتها.

- أنا لست فرنسيا.

- أتوقع أن تكون عربيا، أو تركيا، إنك تمتلك سمة الشرقي.

- ما خاب حدسك أنا عربي من سورية.

- أو لالا ! أنت من داماس ؟

- نعم، أنا عربي من سورية.

قالت : أنا (أعفف) أعرف مدنا سورية كثيرة : داماس، آليب، همص. هماه، لاتاكي، وو.

مع الأسف، لم تذكر اسم مدينتي، مسقط رأسي، لذا أخذت ورقة وقلما وعينت موقع دير الزور، لفظتها هكذا : (ديغ الزوغ).

– يا آنسة دير الزور، دير الزور، يقسمها شطرا نهر الفرات العظيم إلى ثلاثة أقسام، الجسر الجديد، الجسر العتيق، الحويقة، وهي جزيرة وفيها متنزهات عدة، و،

تبسمت وقالت. كأنك سفير دير الزور.

– وهو كذلك. يا آنسة، الذي لا خير فيه لبلده، لا خير فيه للآخرين !

قلت هذا وهممت بالانصراف معتقدا أن مهمتي قد انتهت، غير أنها استدركت. وراحت تسألني عن معلومات إضافية عن بلدي، عدد السكان، الحالة الاجتماعية، ظروف العيش، حين كنت أصغي إلى استفساراتها اعتقدت جازما أنها ستناسب ديريا وقد أكون أنا المعني بالأمر، لم لا !؟،

لذا رحت أرشها بالأجوبة، مستعملا كل اللغات، بالفرنسية والإنجليزية والتركية والعبرية، وإن عجزت كنت ألجأ إلى لغة العصافير، أو إلى الإيماء، لأنها لبيبة، هكذا أرشدني حدسي.

بينما كنا غارقين في لجج سين وجيم، توقف قطار الأنفاق، نظرت إلى لوحة المحطة الجدارية فما كان منها إلا أن لطمت خدها، وقالت :

– لقد أنساني حديثك المكان الذي يجب أن أنزل فيه !

أطلت التحديق في وجهها لأقرأ ردة الفعل على وجه أسود ، وكعالمة نفس أدركت ما يجول في خاطري، وعقبت بغنج الفاتنات (سفا ، ريان دوتو) لا بأس، اعتبر أن شيئا لم يحدث. ثم راحت تتحدث بسرعة وهي ترش الكلمات رشا ، فكنت أستوقفها وأقول لها : على رسلك يا هذه، إنك تستبقين كل المذيعات (آن بو، آن بو) رويدا رويدا.

امتثلت لمطلبي، استعملت كل المكابح للجم الكلمات المتدفقة لكن طبيعتها كانت تغلبها أحيانا.

أشارت إلى دليل المسافر المثبت على واجهة الباب وقالت :

– نحن نقترب من موقف السوربون، سننزل معا كان عليّ أن أزوره غدا فلنغتنم هذه الفرصة، ولتكن هذه المناسبة زاهية بوجودك وأكون أكثر سعادة لو لبيت دعوتي لاحتسا ء فنجاني قهوة، في أحد المقاهي القريبة.

ذهلت للحديث الودي الذي قابلتني به، نسيت عملي، نسيت الخارطة ولست بحاجة إلى قهوة، في هذه اللحظات، إنني أحتاج إلى قطرات ما ء تبل ريقي الذي جف أو كاد لكثرة ما تأملتها بشغف وفضول لا أدري مصدرهما.

دون تردد ، دون تفكير، ضربت كل التزاماتي عرض الحائط، لبيت الدعوة، غير أنني اعتبرتها منقصة لي، إذ الواجب يحتم علي أن أدعوها أنا ، (فالرجال قوامون على النسا ء) هذا أولا.

ثانيا لأنني عربي، ابن بادية. وخصلة الكرم تفرض عليّ أن أكون البادئ.

اقتادتني من يدي، تتبعتها منقادا، سرت بجانبها، بينما كانت نبضات قلبي تتلاحق تباعا، وبقوة غريبة.

في هذه الفترة القصيرة سقطت كل نظريات الحب التي كونتها معتمدا على تجربة طويلة، تقول: الحب يزدهر، بالتعارف، باللقاءات الطويلة، ثم الحب، فالزواج وهو آخر المطبات!

الآن ماذا أصابني، إنني أحب من أول نظرة فأؤيد نظرية (الحب من أول نظرة) الحقيقة أن كل التقنيات الإرادية والمتعمدة والغير متعمدة قد سقطت جهارا بلا مقدمات. كم مر من الوقت! أين أسير؟! لا أدري! كل الذي أدريه أنني أسير لمجرد السير، دون هدف!

احتضنتنا طاولة منزوية في مقهى يقع في حي راق لم أختر المنطقة المنزوية ربما تعمدت هي انزواء الموقع لغاية في نفس السوداء. فلربما هي خبيرة باختيار المواقع!.

أفكاري الشرقية البدائية جعلتني أصفها بالخائنة، مجربة، صاحبة خبرة باختيار المواقع المنزوية، صيادة الرجال الأغرار أمثالي ينقادون بسهولة لأول إيماءة. رامية شباك، بائعة هوى!. إلخ، الأوصاف القاموسية التي أحفظها والتي لم أحفظ!

لا أدري إن كنت قد احتسيت فنجان قهوتي بالروتين المعهود رشفة إثر رشفة أم أنني شربت ما في الفنجان دفعة واحدة حتى

الثمالة، نخب لقائنا المسجون. هذا كل ما أعيه،أن الفنجانين أضحيا نظيفين.

في لحظة هيام جنوني رسمته أنا وحدي، جعلني أحلق في جو الأحلام والأماني منسرحا من أجمل التصورات العذاب، وإذ برجل في الثلاثين من عمره يطل بقامته عند الباب الخارجي ويومئ لصديقتي، وصاح من بعيد: سوزي، سوزي، ثم صار يضغط على إصبعه الوسطى والإبهام فيحدثان قرقعة مسموعة.

لم تستأذني، أسرعت إليه، لم أسمع منها سوى جملة (باردون، إيكسكوز موا) معذرة، سامحني، ومضت جريا ، غابا لحظة.

مرت فترة قاتمة بسمائي، سحب دكنا ء كالغيوم الشرقية. مما دفعني لكي أكيل لها التهم مجددا. مستعرضا الخيانة ومفرداتها ، لأنني ظننتهما قد غابا إلى الأبد، فقررت أن أدفع فاتورة الحساب، وأنصرف بخفي سوزي ! لكنني لمحت محفظة يديها وهي جاثمة على كرسيها دون تثاؤب.

المحفظة الجلدية أثارت الرعب في نفسي، حسبتها محفظة ملغومة وضعتها السودا ء لتلصق بي التهمة.

كيف لا أشك وأنا أسمع كل يوم أحداث انفجارات السيارات المفخخة أو الألغام المؤقتة.

أسرعت إلى محاسب المقهى دفعت ثمن الفنجانين ولم أنس البقشيش) وأنا أحاول الفرار والاختفاء عن الأنظار بلا غُنم أسود أو أبيض ؟

ما كدت أدير ظهري حتى استوقفني النادل، وأشار إلى الحقيبة، وقال لي: نسيت حقيبة صديقتك سوزي!

سوزي، ويعرف اسمها ؟! إذن هي معروفة ! معروفة جدا ! كل وصفي لها كان حقيقيا !

لم يمهلني النادل، أسرع إلى المحفظة، ناولني إياها. لم أستطع ردها له. خشية أن يشك بأمري.

ما أن احتوتها يداي حتى أحسست أن كل أثقال المعمورة أحمل ! هززتها مرارا. فإذا هي خفيفة بوزن الريشة ! لم أطمئن. دفعني فضولي، أو خوفي لكي أفتحها وأتبين محتوياتها، فلم أجد غير أدوات الزينة، وو، (كلينكس) !

تنفست الصعداء عدت إلى كرسي ثانية، طلبت فنجان قهوة لعله يخفف من توتر أعصابي.

ما كدت أرشف أول رشفة حتى عادت برفقة الرجل الذي ناداها. بينهما طفل يقودانه أقبلا نحوي هاشين باشين، ثم قدمت لي الرجل :

- زوجي نلسون، إبننا جاك.
- تشرفنا، أسقطت كل معادلات التخمين والأماني.
- صديقنا العربي، الذي تبحث عنه منذ مدة. قال نلسون.
- تشرفنا (بون أنشانتي).

فوجئت بكلمة : العربي الذي تبحث عنه منذ مدة ! حاولت الاعتراض لكنني تمالكت رباطة جأشي. لم يمهلاني، اتخذا

موقعهما بجانبي. مد الطفل يده يداعب شاربي أومأت للنادل، أقبل، حنى رأسه، طلبا مشروبات روحية، وطلبت قهوة ثالثة.

بعد تناول الأنخاب، قالت سوزي: أظن أننا أخذنا من السيد وقتا ثمينا ، كان يريد التوجه إلى حي (لافاييت) فأخذنا الحديث واجتزنا المكان الذي يريد ورا ءنا ، تبسمت كي لا أحرجها ، ثم تابعت السيدة سوزي قائلة:

السيد نلسون يحضر الدكتوراه في الدراسات الشرقية العربية بالذات. يريد معلومات، أيا كانت المصادر، لعلها تفيده في بحثه.

- لقد توسمت فيك خيرا سنوصلك الآن إلى المكان الذي ترغب ونرجوك أن تحدد لزوجتي مكان وزمان اللقا ء.

وعدتهما خيرا ، أوصلاني بسيارتهما ، الطفل لم يرق له سوى اللعب بشاربي !

افترقنا على أمل اللقاء، مازال طعم القهوة السودا ء حلوا في فمي !

خربشات في حنايا النادي

خمسة أربعة، ثلاثة إثنان، واحدة واحدة،

من أية زاوية أبدأ،

من زاوية التشرذم الفكري، من زاوية التشتت المفرغ !

كل زاوية منصهره من الذؤابة، حتى الأخمص. حدث وحديث

الحدث، غليان في نفس كل عربي، يلقاه. يلف عنقه، أنى تلفت، أنى استدار ! الحديث، متشعب لا قرار له، ولا استقرار،

حشريتي دفعتني لكي أتسقط كنه أحاديثهم، فهل ألومهم لكونهم يتحدثون، أي حديث ؟! أم أعذلهم ؟ لأنهم وإياي، لا نمتلك سوى الحديث !؟ الشلل موزعه بأشكال هندسية منسقة، هكذا أرادها عمال نادي المثقفين والفنانين، هكذا يسمونه، ولا أدري إن صحت تسميتهم، أم طاش سهمهم !؟ المهم أنها شلة تخاصر شلة -طولا وعرضا-.

استطعت بمهارة المجرب، أو بتصوري الخاص، أن أحدد معالم الأحاديث، لذا جعلت أطوف بينها مستعملا حواسي الخمس،الكامن منها والبارز، جندت مداركي الاستقرائية،

أول ما لفت نظري تلك الوحدة «الواحدة» لماذا؟ لا أدري! ماذا أثارني فيها، لا أدري أيضا! الافتراضات المتراجحة، تستدعي الامتثال لكونها تحتل خانة (إلك) وإلك كلمة فارسية تعني الرقم واحد في لعبة، النردشير، كذا.

خانة إلك الإنفرادية، استهوتني، سلطت عليها أشعتي (فوق البنفسجية) ما عساها تتحدث؟ وضعتها من دائرة ملاحظتي المباشرة لأنها شريحة يتيمة بين الرواد. تمور تتحرك بشيء من العصبية!

في هذه الملاحظة. أو اللحظة الأولى دنا نادل أهيف يتمايل وهو يحمل فناجين القهوة والماء القراح، سحب قدومه البساط من تحت أقدامي فانقطعت السلسلة الملاحظاتية!

نادل آخر شد انتباهي، فلكأنني لم أر شبيها له من قبل! إذ كان يعارك عصير الفواكه. بساعديه المفتولين، حتى تنعصر الثمالة. بينما كان العصير يهبط، يعلو، يجيش، يتلاطم! عنترياته تتكسر، عند ملامسة الزجاج الصلب فلا يجد وسيلة سوى العودة إلى العربدة مجددا!

حين فتح فم الصنبور، ظن العصير أن ساعة الفرج قد أزفت، انفلت من الأسار لأنه يعشق الحرية،

فرحة العصير بالحرية، لم تعمر طويلًا، إذ ما كاد يفلت من سجنه المضيئ حتى ألفى نفسه ينحدر في الأجواف المظلمة الظمأى، افتقد حريته التي ينشد ! كتم أنفاسه في الغياهب إلى الأبد !

عدت أقلب الطرف في أرجاء النادي كباحث أو مثقف، أرسلت بصري إلى أعلى (أرتد بصري وهو كليل) إذ حال ركام دخان التبغ وبخار الزفير دون تبين أي شيء، تركت الدخان والبخار يتصارعان حول زجاج السقف.

عملية التصادم العفوي مازالت قائمة، يشتبكان، يتعاضلان، كل الفرضيات واردة، مادام الالتحام قائما،

المعركة لم تتوقف، إلا بعد أن وجدا نفسيهما، ينطحان زجاج السقف، بقرون من عجين، فارتدا ناكصين، الأول نكص، تبخر، تلاشى في الهواء، الآخر، ذاب، انساب في الهواء !

لم ييأسا، حاولا العودة إلى معركة جديدة. يحدوهما أمل الانتصار الخرافي حاولا الصعود مجددا، رافضين نظرية الجاذبية أو لربما لم يألفا غير العشوائية، كما الطحالب التي تمتلك أقداما «أكتوبلازمية».

شيء ما، شيء آخر ما يزال يعتمل في خبايا الذاكرة أعادني إلى ساحة الوعي فلأتذكر وللتذكر شروطه، يحددها علماء النفس ولا أدري ما شدني إلى فرضية : «فلسفة الذكريات» لا بأس ما دمت قد غرقت في ساحة لا قرار لها، فلا أتذكر

الآن : خمسة أربعة، ثلاثة إثنان، واحدة واحدة. ! آه، تذكرت، كنت قد توقفت عند أعتاب الواحدة، في الزاوية اليسرى، على يساري تماما قريبا من سويداء القلب، كانت وسيمة، شعرها أشقر، أملس يسترخي على كتفين هادئين نعما بالشم والملمس.

زاويتي أنا هي الزاوية الوسطى، بين الحادة والمنفرجة، هكذا وضعتني المصادفات، رغم أنني لست وسطيا في البت والحسم، غير أن نظرية الحسم تبقى نسبية. والدليل أنني قطعت تذكري فجأة حومت ذاكرتي، استقرّت نظراتي على شابتين اثنتين، كانتا تجلسان في الزاوية اليمنى من النادي، على يميني تماما كانتا تنغمان، تدمدمان أغنية خفيفة مرحة، أفضلها، فكأنهما اختارتاها لي ! أعجبني اللحن شوقني الشدو، هيمني، ما عدت أقاوم التهويم. زادني الهيمان هياما ! إن الفتاتين كانتا تصوبان نظريهما إليّ، بالتأكيد لم يعجبهما جمالي، لأنني لا أملك منه إلا ما ينفر !

فجأة. طلبتا مجالستي، لا أدري ما شدهما إليّ، زعمتا أنهما لا تدريان الدافع أيضا، ربما هي دوافع غريزية، أو هي ما يسمونه تناسخ الأرواح !

بداية اللقاء كان تحفظيا، تطرقنا إلى مواضيع عامة، عن الأدب والأدباء قالتا لي أنهما صحفيتان، تودان إجراء حوار أدبي معي، ضمنًا، استهجنت الفكرة لكونها جاءت في غير

زمنها، لأنني تمنيت أن تستمرا في الغناء، ذلكم أفضل من ألف حوار !

رغم العرض، رغم العبق الذي يضوع منهما عملية رصدي مازالت مستمرة. المسح مستمر، من الخماسية البعيدة، حتى الأحادية الثانية،

القنص الجديد، كان يمسك تلابيب شابتين أخريتين، كانتا تتحدثان بصرامة عن النار العاتية التي تحرق الهشيم، والهشيم أضحى رمادا تذروه الرياح لعمري، كأني بهما اختصرتا أحداث عالمنا العربي ببضع جمل رمزية.

ما تبقى من سمعي إن تبقى لي سمع. أطلقته هنا وهناك ليفوز بقصب سبق هناك جماعة تثرثر تتحدث عن أشياء يترفع عنها قلمي، لذا حشوت أذني كي لا تصابا بالزكام الأذني البغيض.

الأذن الرابعة، ناخت بكلكلها، على جماعة قصية المكان، الجماعة إياها تتحدث همسا كأنها تخشى آذان المتطفلين أمثالي، لذا رجعت أذناي -من الغنم بخفي حنين، لربما أنا الآن أحتاج إلى ألف أذن وأذن لتجوس الخبايا والمتاهات، و من أين لعبد فقير مثلي- مثل هذا العدد الهائل من الأدوات التنصّتيّة التي لا يمتلكها إلا المحظوظون أو أولئك الذين يمتلكون حاسوبا عصريا يرصد أخفت الأصوات ! هذا رغم أنني متأكد أن الكثيرين يمتلكون القدرة على استشفاف أدق الأصوات حتى. !

وما دمت كذلك -محدود الإمكانات- فما علي إلا أن أعود إلى السلسلة.

خمسة أربعة، ثلاثة إثنان، واحدة واحدة،

ها، تذكرت توا، نسيت الواحدة، أفرغتها من شحنة استشفافي، إنها وحيدة منحشرة بين الجدار. وخانة (إلىك). تعيش عالمها الخاص، تعايش بطاقة بيضاء تسر الخاطر، ألا قاتل الله النظر، إذ ربما احتاج إلى مجهر فلكي لكي أمسح كل صغيرة في هذا النادي الواسع. لم تكن تلك التي بيد الفتاة (الوحدانية) بطاقة بيضاء تسر الناظرين، كما أوحى إليّ ناظري الحسيرين، بل إنها صورة بحجم الكف، ملونة، هي لشاب في مثل عمرها، أما سر معرفتي هذه التفاصيل، إن الصورة وقعت، فتصنعت الأدب، التقطتها وناولتها إياها بعد أن تأملتها جيدا أدركت آنذاك، إنها الوحيدة التي كانت تتعامل بصدق مع محيطها الذاتي، حتى وإن كان هذا العالم الخاص يؤرقها، تأكدت تكهناتي حين رأيتها تمسح دموع اللوعة. !

منظر هذه الفتاة أعادني إلى أيام صباي، تحسرت، عدت فورا إلى خمسة أربعة، ثلاثة إثنتان، واحدة واحدة،

استغفرت ربي ثلاثا، أيقظتني من تأملاتي الوردية، حركة العمال وقد باشروا رفع الكراسي عن المناضد إيذانا بانتهاء الدوام، رحت ألملم أوراقي، لكن النظر ما يزال يجوس. آخر ما لاحظت ذلك الأصيص القابع في الزاوية المنعزلة وقد ذوت وروده، وطأطأت الوريدات رؤوسها.

ضربة على الحافر، وضربة على المسمار

السيد بدور، حذّاء مشهور، اتخذ إحدى زوايا حيه مقرا يمارس فيه حرفته تلك.

اعتاد أهل الحي أن يروه طيلة نهاره. لا يكل ولا يمل، وكأني بالكرسي الذي تحته يئن. كونه لا يفارقه. إلا ليعود إليه !

لقبه بعض أهل الحي الفكاهيين بـ : (عضاض الجلود)، وكان يقابل هذا اللقب بابتسامة باهتة. وفي جوفه نار تتوقد. وبخاصة إذا مر به جار متعجرف يمر ولا يسلم، يهبط من سيارته الفارهة كأن الدنيا لا تسعه.

جاره الآخر، أبو منير طبل أجوف، لا يجيد غير الثرثرة. مع ذلك يعد من علية القوم وأثريائه، الدنيا حظوظ. هكذا يحدث نفسه، ثم يعود إلى النعل الذي بيده، يضربه بالمطرقة المدببة أحد الرأسين، المدورة الرأس. يكرر فيضرب أصبعه، يصيح متألما : (هَوْ) ويتابع مثله الشعبي : (يلعن أبوك عيشة) ثم يدمدم مع أغنية وديع الصافي : «مغمسة بالدم عيشتنا».

مرور أثرياء المدينة المتوالي، تكبر بعضهم، خلق في نفسه عقدة ! العقدة تفاقمت، ولّدت حقدا.

تذكر المثل القائل : ضربة عالحافر، وضربة على المسمار، ؟! فقرر أن يضرب ضربته، فليضرب هنا وهناك، وليكن الطوفان.

بدريهمات معدودات جمعها من تعب مضن. وجهد جهيد، وحصيلة بيع بعض أثاثه الذي ورثه عن المرحوم. لأنه يكره التراث الأصم !

بما جمعه، اكترى حانوتا صغيرا، علق على رفوفه بعض الأحذية الرجالية والنسائية، وقد جلب السلعة من أحد تجار الأحذية. وسجل عليه فاتورة ضم إليها الفائدة.

صار له عملان، إصلاح الأحذية المهترئة، وبيع الجديدة، أضاف إليها هواية ثانية، وهي مطالعة بعض الكتب التي يستعيرها من بعض أصدقائه القدامى، درس القرآن الكريم عند (الملا) فصار يهجي كلمات، ويكتب بعضها، ومع ذلك فهو الآن يحب أن ينمي المطالعة، لأنه تأثر بالشيخ الذي يتابع قراءة القصص ؟!

بعض فكاهيي الحي، كانوا يعلقون : (بعدما شاب، راح للكتاب) وقد نسوا أو تناسوا لقبه القديم (عضاض الجلود)، فالناس أبناء لحظتهم.

بمرور الزمن شغف بالكتب، صار يشتريها، وصارت شاغله.

بمرور الزمن أيضا. فتح الله له، ووسّع عليه، سدد ديونه مع الفائدة. ألقى السندان والمطرقة والكماشة، وعلب المسامير وتفرغ إلى بيع الأحذية الجديدة.

السيد بدور، أبو البدور لم يحمد الله على ما أولاه من نعم، راح ينظر إلى أعلى، ساءل نفسه، لم أبو منير الطبل الأجوف، يصير مدير مؤسسة. وهو لا يزال في حانوته الحقير ؟!

لِمَ السيد أبو جميل، يترأس جمعية؟ لِمَ فلان، ولم علتان؟

أَضمر شيئا في نفسه، رسم خطة -قال عنها أنها محكمة- نفذها فورا.

الصّفقة الجديدة، لها أصول وبروتوكولات. من مسلمات الخطة الجديدة، أن يكون دبلوماسيا يجيد استعمال فن التملق والتعلق.

لم يترك وقته يضيع سدى، صار يتودد إلى كبار المسؤولين، الأثرياء المعروفين.

جاءه يوما مسؤول مشهور يريد شراء حذاء. هش وبش، وصار يدور كالمقرور جرّب معظم الأحذية، حتى طابق حذاء قدمي المسؤول الخطير، وبكياسة دبلوماسية، لف الحذاء، وقدمه للزبون. مد الزبون يده إلى جيبه ليخرج الدراهم كي يسدد قيمة الحذاء.

رد أبو البدور بلباقة دبلوماسية : (خليها علينا) قال هذا ومد يده إلى يد المشتري. وأقسم بأعظم الأيمان، ألا يأخذ الثمن.

استمرأ العملية. كررها مع علية القوم وكبار المسؤولين، بل صار يصطاد زبائنه من النخبة، فمن لم يلبس حذاء من أحذية حانوته. يجري خلفه ويدخله حانوته ويخرج بحذاء جديد. هدية بلامنة !

لم يبق وجيه أو متنفذ في البلد. دون أن تنتعل قدماه من أحذية أبي البدور المشهور.

غدا أبو البدور مشهورا، صار يقضي حاجات أهل الحي إذا قصده، فبمجرد أن يتوسط لأحد عند مسؤول تنحل العقدة ويسوى الأمر.

صارت شهرته تطبق الآفاق، فمن له حاجة كان يقصد حانوته ليبتاع حذاء، حتى ولو لم يكن في حاجة إلى حذاء.

و صار الزمن يسمى: زمن الأحذية المتنفذة !

طموح أبي البدور لا يعرف الحدود! راح يرسم بعيدا، لِم لا يكون مديرا مسؤولا كبيرا، بل وأكبر من أبي منير الطبل الكبير!

و، و، ويسقط الزمن، الذي سمي: (بالزمن الرديء)، ويصبح بدور مديرا عاما لإحدى الشركات الخاصة!

و، و، ...الزمان ويستقر في مكتبه الوثير، ويجلس على كرسي دوار.

جرّبه بحركة لولبية آلية. دورة على اليمين، أخرى على اليسار، أعجبه الدوران. فتابعه حتى تعب، أقعى على كرسيه. كما يفعل فيل إن خارت قواه.

ركز نظارته الجديدة. على أرنبة أنفه. وما كان قد اشترى نظارة من قبل، إنها من ديكور المهنة الجديدة ! الأنف منه استقام، النظارتان مثبتتان بإحكام. تمتطيان أنفه برشاقة، راح ينظر إلى المرآة وهو يفتح فرجتي منخاره. كما يفعل جواد. أنهى توًّا شوطا مضنيا في حلبة السباق.

أسند ظهره إلى الوراء. أسر في نفسه معلومة جديدة : «الكرسي جيد، ثابت ومريح» ما دام الكرسي جيدا ومريحا، لم لا يثبت هو عليه ليرتاح مدى الحياة.

تلمس زجاج المنضدة. ألفاه نقيا لامعا عاد إلى لعبة الدوران بنفحة أوتوقراطية.

فجأة، لمح أوراقا مكدسة أمامه مستلقية ترجوه أن يوشحها بخاتمه الهامايوني، ويذيلها بإمضائه الشاهنشاهي.

ضرب على زر الجرس، جاءه الآذن مسرعا. وقف محييا صاح به : ويلك يا هذا ! أين فنجان قهوتي. ؟!

–سيدي،–،

– أصمت لا أريد تفسيرات. ربما تختلق وأمثالك شائعات مغرضة تزعم أن القهوة مفقودة من الأسواق !

– اسمع يا هذا

– سـ،

– حتى وإن فقدت مادة القهوة من الأسواق المحلية يجب ألا تفقد في مكتبي، أنا مستعد لكي أجلبها من الخارج، وبالدوفيز العزيز !

- سيدي، فنجان قهوتك برد ، إنه أمامك.

- حسنا انصرف الآن، لالا ، ليس قبل أن تدخل المراجعين، ولكن، انتبه، لا تدخلهم كلهم، انتق عشرة،

تدور عجلة الزمن دورانا عكسيا ، (زلزلت الأرض زلزالها) تخسر شركة أبو بدور، ليس من وسيلة أمامه إلا أن يستجدي أصحاب الأحذية، ويتذكر لقبه القديم (عضاض الجلود) .

وصايا جدتي

جدتي -رحمها الله- كانت قد أوصتني في زمن من الأزمان. الوصايا الآتية : حتى استقبل دنياي بفرحة. وأكمل نصف ديني بأمان.

يا بني يا فهمان : تزوج ابنة الثمان، وعليك الأمان.

تزوج ابنة السبعة، إنها مثل السبعة.

تزوج ابنة العشرة، إنها تحسن العشرة.

عشرة أيام وأنا أتحصن في خندق رطب، تذكرت وصايا جدتي يوم كانت تحثني على الزواج في وقت مبكر، من ابنة الجيران حميدة ابنة الثمانية أعوام. مفاخرة كونها تزوجت في مثل عمر حميدة !

آه يا جدتي لو رأيت حفيدك، وقد شب عن الطوق، لكنه قابع في خندق رطب، وهو يرتجف كديك ذبيح، لا تصله سوى أطياف الأهل، وهي تحوم فوقي فأعيش لحظات الأحلام الهانئة، وكأني الآن بين ظهرانيكم. وسط قريتي الحبيبة. طائراتنا الحبيبة، تحوم هي الأخرى فوق رؤوسنا. تمنحنا الأمن وتسقينا إكسير القوة.

تسقينا إكسير القوة، نعم، هذا صحيح ! لكن المشهد الكوميدي قد ينقلب أحيانا إلى مشهد تراجيدي يا جدتي ! -إذ بدأ اللحظة اشتباك جوي، فوق رؤوسنا ، نراه بالعين المجردة-

صيحات الله أكبر تتعالى، فتشحننا إيمانا بقضيتناوتشدنا إلى وطننا.

قصف المدافع يملأ الجو هلعا وفزعا ، يصم الأذن. ويبعث الرعب في قلب أشجع الشجعان.

لعلعة الرصاص تختلط بزغاريد نساء المنطقة، صدقيني إنني أسمعك تزغردين الآن، صداها يصل أذني، صدقيني. إنك تزغردين. كما كنت تفعلين بالأمس القريب. يوم عرس أخي حامد.

صدقيني يا جدتي أن زغرودة حميدة الصغيرة. تتناهى إلى مسمعي. كما يتناهى صفير رشاش جاري في الخندق، إنه يزغرد بنشوة.

نشوة أحاديثك. انقطعت عني أحاديثك كما أخبارك. لا شيء يؤرق المحارب. غير انقطاع أخبار الأهل والخلان ما أخباركم ؟ ما أخبار حميدة الحبيبة ؟ ألا تزال تحبني ؟! ألا يزال حمدان -حارس البستان- يطلب يدها ؟! هل دفع مهرا أكثر، ليستولي عليها كسقط المتاع ؟

قولي لها : إنني سأدفع أكثر، ربما مهري لن يكون مالا ، سأضع على رأسها إكليل غار، إكليل العز والانتصار. قولي

لها يا جدتي أنني أحبها، مازلت وفيا لا أريدها أن تسقط كسقط المتاع.

إنها تسقط، فعلا سقطت يا جدتي. دفاعاتنا الجوية تسقط طائرة معادية. ها هي ذي أشلاؤها قريبة مني،

صيحات الله أكبر تتردد، تبعث الخشوع والاعتزاز. كأنها قصيدة تشف. حين ارتطمت أشلاء الطائرة المعربدة بالأرض. كتمت أنفاسها إلى الأبد. أجزاؤها المتناثرة وصلت خندقي هذه شظية فيها. ألتقطها وأدسها في ثنايا معطفي لأقدمها هدية إلى حميدة لتفرح وتزغرد.

دعيني يا جدتي، دعيني أعود إلى ساحتي، فالمعركة مازالت محتدمة على أشدها في الجو. على الأرض، من خندق إلى خندق، تفوقنا يبدو جليا. فرحتي لا توصف!

فرحة الانتصار، لا تعادلها فرحة! وها هي دموع الفرح تتساقط من مآقي، إنها دموع النصر المبين، دموع حارة، تذكرني بحرارة يديك حين تمسين جبهتي فأشبعهما تقبيلا.

ها هو شلو آخر -يا جدتي- يصيب كتفي، شظية معربدة أصابتني. آه يا جدتي!

آه يا جدتي، شظايا قذيفة وشحت جسدي، رجلي في الجبس من الساق إلى الحوض، لكن أصابعي تتحرك، لساني يعربد، كما رشاش صديقي سعيد. رأسي ملفوف بالشاش الأبيض.

اللدائن تلف ساعدي، لكن قلبي سليم، قلبي عندكم، عند حميدة ! طيفها لا يفارقني ! أخبريها أن الطائر المهيض الجناح، سيقدر على الطيران يوما ، قولي لها : الرجل لا يستبدل بأشباه الرجال !

قولي لها يا جدتي : إن (حمدان) يمتلك نقودا أكثر، لكنني أمتلك رجولة ووساما. لا يعادلهما مال الدنيا.

إن امتلك هو المال، فأنا أمتلك القلب الوفي !

أحب حميدة يا جدتي !. أحبها ، أحب ابتسامتها العذراء. أحب لقاءها كل صباح عند عين الماء، أحب سماع صوتها ، وهو ينساب إلى أذني كتغريد بلبل سعيد.

أكاد أجن حين تحييني بجملة موسيقية : صباح الخير.

- صباح الخير يا حسون.

- صباح الخير أيها الممرضة الطيبة !

- أراك أحسن حالا اليوم، خدّاك متوردان، ابتسامتك تشع ألقا ، إنك أكثر نشاطا.

أردت أن أثبت لها أنني نشيط معافى لكي يعجلوا بإخراجي، فحاولت النهوض.

- لا لا، لا تتحرك ! لم يأذن لك الطبيب بعد !. هاه، بالمناسبة رأيتك قبل قليل تضاحك نفسك، ترى لمن كنت تضحك ؟! ومع من ؟!

أصارحك يا جدتي، أنني أحببت أن أخبرها عن رحلة طيفي إليكم، لكنها أسكتتني مرغما حين أدخلت ميزان الحرارة في فمي.

أغلقت فمي امتثالا، أغمضت عيني رغبة لأنني أردت لأحلامي أن تبقى سابحة فوق نجوم حميدة. فأبقيها في ساحتي، وأتنقل أنا في ساحة القرية لألتقط المشهد إثر المشهد، لعل الأثير يخبركم أنني بخير -والحمد لله- وأنني مازلت أغرق في متاهاتي الوردية، متمرغا في ميادينها الواسعة.

ميدانها الواسع، ميدان أرض المعركة، احتواني ثانية بعد أن استعدت صحتي ولياقتي. ميدان القتال في هذه الفترة، انقلب جحيما يصطلي فيه الأعداء، صارت سماء بلادي الواسعة محرقة لطائرات الغاصبين.

اسمحي لي يا جدتي، صافرات الإنذار تنطلق، تدب الرعب، تصم الآذان، تبعث الهلع والرعب. إنها تدعونا للاختفاء والحذر، لأن غارة جوية في الأفق، بلحظات أمحت الحياة عن وجه الأرض !

امتثلت للأمر، فأنا جندي، أنفذ ولا أعترض. امتثلت للأمر، اختبأت انبطحت، لا خشية من الغارة، الخوف لم ولن يدخل قلبي يا جدتي. ! كل الذي يخيفني هو أن تباع حميدة في سوق النخاسة ! زمن الخوف من أسطورة الجيش الذي لا يقهر. قد ولى عهده. قد يعرفه حمدان، ابن المختار !

أعلمي حميدة أن حبيبها لا يخشى شيئا، الشيء الذي أخشاه، هو إبعادها عني، ليتني أستشهد بقذيفة من طائرات العدو، ولا أموت قهرا بفراقها !

طائرات العدو النفاثة، قنابله المدمرة، ليست بعيدة عني، أراها وأنا في خندقي أتخذ وضعية الرامي منبطحا، أصْلي العدو نارا حامية، أشعر في هذه اللحظات بالغيرة القاتلة تغزوني، لتدخل كل ذرة من ذرات جسدي، فتحرقني وتكويني، آه من نار الغيرة، من أين بعث الله لي، حمدان هذا ؟!

صحيح أنني الآن (أفترش الغبراء. وألتحف السماء) كما يقول المنفلوطي. غير أن دفء يديك يشعراني أن ساعدك تحت رأسي كوسادة ناعمة، أحس أن لمس حميدة، ريش نعام افترشته، أتلذذ بنعومته،

قلبي عندكم، عيوني تتحرك في كل الاتجاهات، ترصد النأمة الخرساء لتحريك العدو، يدي على الزناد، أحتضن الرشاش -ناره لا تنقطع، ولا تتوقف. مثل نبضات قلبي، ناظراي يرصدان خبايا الجبهة، وفؤادي يرصد وجيب قلب حميدة !

- حميدة !. هذا أنت يا حميدة ؟! لقد كبرت، لم تعودي طفلة ابنة الثمانية ! هذا أنت، إنك أمامي !

- هذا أنت يا حسون ؟! لقد كبرت وكبر الوطن بك، وصلتني هديتك الثمينة وصلتني الشظية، فصنعت منها خاتمي خطوبتنا، أيكفيك هذا يا حبيبي ؟.

– أعدت الأمل إلى نفسي، ها أنا أعود ، وإكليل الغار يعلو جبهتي، هاك عربون مهرك، هذا الوسام الذي أعلقه على صدري، وشلو طائرة العدو ، أيكفيك هذا يا حميدة يا حبيبتي ! ؟

زغردت حميدة، رددت بيوتات القرية صدى الزغاريد لتملأ الدنيا بفرحتين عظيمتين، فرحة النصر ، وفرحة انتصار الحب العظيم.

في لحظات السعادة تذكرت وصايا جدتي، رحمها الله، يوم كانت تردد على مسامعي.

تزوج ابنة الثمان، وعليك الأمان.

تزوج ابنة السبعة، إنها مثل السبعة.

تزوج ابنة العشرة، إنها تحسن العشرة.

الله يا زمان الجدات !

ليت جدتي كانت حية لتشهد حفل عرسنا ، ليت ؟

أنشيلا

شقراوات باريس، نيس، ليون وطولون، يتمايلن على أنغام الفالس، ويهززن أرادفهن على إيقاع الجيرك.

في هاتيك اللحظات، قذفن من عل إلى الأرض كل مشاكل الحياة ونكدها وتعقيداتها. أنا الوحيد من ركاب الطائرة الذي يحمل هموم الدنيا، حتى في السماوات العلى، رغم أن كل ما حولي كان يرقص أو يغني، ! أو يصخب حتى !

صخب معدتي كان أعتى! جل تفكيري كان منصبا على صراخها المؤلم، أزيد من يوم، بليله ونهاره، لم تزرها لقم، فما وجدت غير العربدة، وسيلة احتجاج منيتها قائلا: على رسلك يا هذه. سيأتي الفرج ! ولكأن المسافر الذي يجالسني، قد تضايق من شدة قرقعة بطني. أخشى ما خشيته أن يتهمني بالـ. لذلك ابتعدت عنه. ما أمكنني الابتعاد.

لم أفكر به. ! أنه يلهو مع الحسناوات، يصفق، يغني. يرقص وهو في مقعده. أما أنا فكانت جلستي ووقاري الشرقيان عالمين متميزين يلفاني من الذؤابة حتى أخمص قدمي.

شارباي السوداوان الكثان سمرة بشرتي. علامتان مميزتان، تفرزاني عن باقي القوم، الشقر المرد.

كلهم يعربدون. وأنا كأمير شرقي متربع في مقصورته، عند صولجانه. كل وتر في جسدي يدق أنغام المجاعة العاتية، بموسيقاها الصاخبة !

الموسيقا الصاخبة تلاشت. انحبست الآهات والتأوهات، عاد الهدوء يخيم داخل الطائرة. مع إطلالة المضيفة الحسناء الفارعة القد.

ها هي ذي تفيض بشرًا، تتوج هامتها خصلات ذهبية مسترسلة على الكتفين تكاد تلامس أخمص قدميها.

يداها العاجيتان كانتا تدفعان برفق عربة المشروبات، سرعان ما امتدت الأيادي، لتتلقف الزجاجات المثلجة،

الزجاجات، مختلفة الأنواع والأشكال وحتى المحتوى، عين كل مسافر كانت تصوب إلى زجاجة يختارها.

عينان تنقبان خلف القميص الشفاف. في أماكن استراتيجية. تجوسان كل متاهات المدى، واللامدى !

جِرس صوتها، أنهى عبثي، أعادني إلى حيث الزجاجات، لأطفئ نار الظمأ. مررت بلحظة مفاضلة، أيهما أختار، الزجاجة، أم صاحبتها ؟!

صاحبة الزجاجة. ما اعتادت انتظار زبون مسل مثلي، كررت نداءها لي. نداءات الداخل كانت أشد قسوة. ! صحت بها في لغة فرنسية ركيكة (مدام جي فان) يا سيدة، أنا جائع،

تبسمت، ثم انطلقت تجر زجاجاتها. بعفوية أمسكت ذراعها، كاد يقتلني الملمس! تراخت أناملي على جسدها الأملس، نسيت جوع بطني، إنني جائع. تحققت صدق النظرية القائلة : «البطن الخاوية، لا يمكن لها أن تعمل» إنما أستطيع أن أضيف إليها معلومة جديدة وهي : «البطن الخاوية لا يمكنها أن تعمل، إنما يمكنها أن تقع !. »

بحركة رشيقة استدارت الحسناء نحوي. شكل شعرها مروحة طبيعة دائرة بعثت نسيما عليلا تحرك في كل الاتجاهات. فغدا مسكنا لآلام جوعي !

قالت برقة الفرنسيات الغانجات (وي مسيو) ؟

المسيو، كاد يطير فرحا، استجمع كل قواه الكامن منها والبارز : فرد : (المسيو جائع، يا بنت).

غمزتني لأتبعها ياللهول ! يا للآلهة ! أممكن أن تكون هذه غمزة بشر ؟! أممكن أن تكون الغمزات لها مثل هذا التيار الصاعق ؟!

المهم، أنني تتبعتها. كما يتتبع القط الجائع، لحما طازجا في المطبخ.

في مطبخ الطائرة دست لي خلسة (لفة) فاحت منها رائحة المشوي. تلك (السندويشة) الصغيرة. التي لا تشبع رضيعا، كانت هي غنمي الكبير. فعدت أجر جر خيبتي.

صوت مذيع الطائرة. يحثنا على ربط الأحزمة. استعدادا للهبوط في مطار مرسيليا.

في لحظات الهبوط والصعود، ينتاب المسافرين إحساس بالخوف، لاعتقاد الجميع، أن جل الحوادث تأتي في هاتين الفترتين.

حمدا لله، الطيار بارع، صفقنا له، هبطت الطائرة بسلام، فككنا الأحزمة. هبطنا بهدوء، بدأت المضيفة تحييني بلهفة، وتودعني كصديق، وقالت بضع كلمات. لم أفهم أكثرها. إلا أنني كنت أجيبها بإيماءات من رأسي، أو بكليمات مقتظبة، (وي، بون، سافا، أونفوار).

بعد دقائق وجدتني أنتظم في الطابور أنتظر دوري، لإتمام الإجراءات الإدارية، ضمن صف طويل جدا.

الإجراءات بدت مملة، الروتين قاتل، مسحت زجاج نظارتي. جعلت أجوس أرجاء المطار، أتلهى بمنظر الآدميين الفرنسيين، الذين ألتقيهم، أول مرة في بلدهم، أتراهم هم أنفسهم الذين التقيناهم في بلادنا، أم يختلفون ؟ انطباعاتي عنهم: أجلاف، قساة، مستعمرون، قتلة، لقد احتلوا بلادنا ردحا من الزمن.

بالتأكيد المضيفة ليست من طينهم ! ليست حفيدتهم، لأنها لطيفة ولعل حدسي يكون قد أخطأ، لأن جيل المستعمرين قد أمحى.

أفكاري مازالت عالقة عند المضيفة، وهذا لا يمنعني أن أطارد بنظراتي أية فتاة تمر بساحتي، لأنها تثيرني، كيف لا، وأنا من بلد الحرمان والجوع !

وسط هذا الحشر، رأيت فتاة تدنو مني، أنا المقصود، دون سواي، نعم أنا !

أبحلم أنا ؟! إنها هي !. إنها المضيفة ذاتها ! حيتني بحرارة، صافحتني، عرضت عليّ المساعدة، لم تمهلني، تناولت حقيبتي، غمزتني، لم تترك فرصة للرد. تتبعتها، كما حمل وديع، يلاحق أمه. ولا يسألها عن الجهة التي تقصد!

بلحظات، كانت قد أنقذتني من الطابور اللعين. بعد كل هذا خاطبتني مباشرة :

- مسيو، أتقبل مساعدتي.
- بكل امتنان، مدموزيل.
- باردون، مدام أنشيلا.
- عز الطلب، همست بسري فرحا.
- سأوصلك بسيارتي مجانا إلى المدينة. وسأدلك على فندق نظيف هادئ مريح، ورخيص الثمن. تفضل معي هيا هيا، ألي.

ليس للحمل الوديع سوى أن يحني رأسه ويسير !

ضمتنا السيارة -نحن الإثنين- إلا من شيطان ثالثنا !

جلست بجانبها على المقعد الأمامي الذي يسميه الفرنسيون (كرسي الموت) كنت هادئا، تعمدت الحشمة والوقار، لا يتحرك بي سوى عينين تجوسان كل المتاهات، نسيت كم قطعنا من الطريق !

الطريق إلى مرسيليا طويلة، كأنني بها شعرت بالملل مني. أو القرف. لذا أمسكت رأس خيط الوشيعة، طلبت مني أن أحدثها، أي حديث ! إسمي، عملي سبب زيارتي لفرنسا، معلومات عن بلدي إلخ،. القائمة طويلة. بحسن نية أجبتها :

إسمي : العبد لله، حملك الوديع، عملي: مدرس مقطوع من شجرة تستضيفني أرض عربية طيبة.

- حديثك يبدو شيقا، تابع تابع. إن الطريق طويلة، قل، قل أي شيء !.

- مدام، أنا لا أجيد الفرنسية كما ينبغي، أرجوك.

- اسمع يا سيد، إن كنت لا تجيد الكلام، ألا تجيد فن اللعب ؟!

- فن اللعب ؟! مثلا ؟

ألا تعجبك فخذاي هاتان ؟! وأشارت إلى فخذيها العاريتين، ثم تابعت : طب طب، طب طب، هكذا، جعلت تطبطب على فخذيها بكفيها. كما قارع الطبل. وقد تركت المقود، بينما كانت السيارة تنطلق بأقصى سرعتها.

السيارة تنطلق بأقصى سرعتها، وأنا صرت أرتجف بأقصى قوتي، وصرخت بها متخطيا كل (بروتوكولات) الآداب :

- مدام، مدام (يرحم والديك) المقود المقود، لا أريد أن أموت بحادث مرور، أمسكي المقود، وسألعب !. أجل سألعب، هاه، هاه، سألعب وأمري إلى الله.

قهقهت أنشيلا طويلا من أعماقها. يكاد يغمى عليها. ولا أدري إن كان ضحكها على غبائي-لكوني لا أجيد فن (الطبطبة). أم لكوني رضخت لأمرها.

بعد لعب ممتع طويل، وبعد طبطبة متواترة منغمة قدمتني إلى صاحب فندق (دانيال) قائلة :

- صديقي العزيز، والعزيز جدا، ثم خاطبتني: أنت مدعو مساء الغد، إلى حفلة ساهرة، أنك لطيف وممتع، وقدمت لي بطاقة عنوانها. انسحبت تلاحقها نظراتي النهمة.

أخذ صاحب الفندق يدون اسمي عن جواز سفري، بينما جعلت أنا أتفحص البهو الفخم، ما كادت عيناي تقعان على اللوحات المعلقة على الجدار المواجه لمكتب مدير الفندق. حتى تسمرت بمكاني.

تسمرت بمكاني، كدت أكذب ناظري، إنها هي (الهالاخا. والحاداشا) التعاليم العبرية. التي درسناها سابقا في جامعة دمشق-كلية الآداب.

اسقط في يدي،تأكدت أنني وقعت في شرك صهيوني منظم. و(دخول الحمام ليس كالخروج منه).

ما علي إلا أن استعمل الحيلة والدها ء، لأنقذ نفسي. دخلت المطعم رفقة المدير اليهودي، الذي يتقن العربية، ثم أعطاني مفتاح غرفتي.

أخرجت سكينا من حقيبتي، رحت أمزق الفراش بغرفتي، وبغرف أخرى حززت الجدران، عبثت بكل ما تطاله يدي.

مبكرا حملت حقيبتي، وقدمت أجرة المبيت إلى موظف الفندق، لكنه اعتذر زاعما أن صديقتي أنشيللا. هي التي سددت أجرة النوم، والطعام.

راوغت مدير الفندق، أكدت له حرصي على موعد أنشيللا مسا ء اليوم، وأن محفظتي ملأى بهدايا سأقدمها لأصحابها، وإنني بحاجة إلى جواز سفري لكي أقدمه إلى سفارتي، كذا،

لم تجد كل حجج صاحب الفندق. تركني أخرج، وهو يؤكد على رجوعي. في حي (لامارلان) في ضاحية من ضواحي مرسيليا، أين يتكاثر الإخوة الجزائريون، حدثتهم عن قصتي مع أنشيللا.

بادروا إلى تهنئتي بسلامتي، وحسن تخلصي من هذه (القوادة اليهودية). لا أخال أنشيللا، ومديرالفندق، إلا وقد أقاما ضدي، دعوى قضائية مستعجلة، لأنني، نمت مجانا، وأكلت مجانا، ولعبت مجانا، وو، وركبت مجانا !.

الجزائر – أوت – 1969

السندات تقضمها الفئران !

«السندات تقضمها الفئران، والظلم يقهر الإنسان»

بهذه المقولة لقنت تلاميذي أول درس، وما كانوا صغارا أبناء ست سنوات كما يحدث اليوم، بكل تأكيد. إن بعضهم كانت له شوارب. بعضهم أو غالبيتهم بحت أصواتهم، ولا آتي غريبا أو أروي أعجوبة إن قلت إن بعضهم على وشك الزواج !

هؤلاء هم تلاميذي أتذكرهم، أتذكر أسماءهم رغم مرور أزيد من خمسين عاما يوم عينت معلما في قرية نائية، فصدمتهم بأفكاري الثورية.

باشرت عملي الجديد، وأنا أحمل شهادتين :

أ - شهادة الكفاءة بدرجة امتياز.

ب - شهادة الإدقاع بتفوق.

أنرت درب تلاميذي، فتقت أذهانهم، فتحت عيونهم على واقعهم، وواقعنا الإجتماعي المعيش.

كان ذلك في أيلول 1939 لذا صدقوني إن قلت حدث هذا منذ خمسين سنة

منذ خمسين سنة، انصرف التلاميذ عصرا ، جلست أسترد أنفاسي، أفسد علي الفلاح خليف العلي خلوتي، دخل حجرتي دون استئذان، وهو يلوك بشدقيه رغيف خبز شعير. جلس بقربي بعد أن حياني، قدمت له كأس شاي، ابتدأت وصلة الشراب بصمت لكن جليسي كان يعكر الجو الهادئ يجرش الخبزة بأسنانه، أو يشفط الشاي جرعات جرعات، محدثا صوتا عاليا نشازا كما تفعل مضخة ماصة، ولما ضاق ذرعا بالسكينة التي فرضتها عليه بصمتي تلفت إليّ، وقال بعفوية القروي وبرا ءته : (و الله محد مكيف غيركم يا لهلامعلمية).

إذن نحن محظوظون بل محسودون. حتى خليف يحسدنا ! على همنا يحسدنا ! بقيت لحظات أقلب دفاتر الحسد بذهني، رحت أسائل نفسي، لماذا نحسد ؟ (يا حسرة) !

فهل يحسد معلم وحيد في قرية مقطوعة عن الدنيا. يحتاج زائرها استعمال كل أنواع المواصلات القديمة والحديثة. وحتى السير على الأقدام !

هل يحسد معلم يقيم في حجرة واحدة يستعملها ، غرفة تدريس خمسة صفوف، غرفة استقبال المراجعين والضيوف، غرفة نوم، والمطبخ والحمام، وو، ومهام أخرى، ومع ذلك يجاهرنا خليف الحسد : «محد مكيف غيركم يا المعلمية !» وهو يعلم

أنني لا أصل إلى الطريق العامة إلا بعد أن أقطع مسافة خمسة عشر كيلو مترا راكبا على حصان أو بغل أو كديش، أو حمار (حاشا السامعين) فأغوص بالوحول، أستنشق الرمال، ألاقي أهوال انتظار سيارة (ابن حلوب) رحمه الله. التي قد تأتي، وقد لا تأتي، قد أحشر في مكان فيها، وقد لا يوجد مكان شاغر فأضطر (لأتعربش) اتشبث بها من خلف أو على الرفراف، إيه، علام الحسد ! هذا شأنك يا خليف، يا شيخ الحاسدين ! يا خليف ! يا صديقي ! كيف حال زرعك هذه الأيام ؟، أردت أن أغير مجرى الحديث بسؤالي، وأطرد الحسد !

- الزرع بخير (سابج) لفوق الركبة.

- معنى ذلك أن الموسم يبشر بالخير والعطاء، وإن نقودك ستتكاثر بعد الحصاد وإنك،

انتفض صاحبي، انفجرك مذياع لا ضابط له، حتى أنت تحسدني يا أستاذ ؟! أما تراني أحصد القمح، وآكل خبز الشعير! هاه، قال هذا ورمى قطعة الخبز على الأرض. لم يتركني في دهشتي من تصرفه إذ سرعان ما انحنى، والتقط قطعة الخبز من الأرض. قبلها ثلاثا، وضعها على رأسه ثلاثا وهو يردد أستغفر الله العظيم، نعمة الله، نعمة.

أعاد اللقمة إلى فمه، رشف بقية الشاي، أسند رأسه إلى الجدار يفكر ويتبسم !

يتبسم أبو خليف لكونه عاد توا من المدينة، بغنمه الثقيل الذي جاء به، أخذ يعرضه أمام زوجه وأبنائه، وهو يهتف فرحا، هذا كله لكم وهذا كله لكم!

- من أين لك كل هذا يا أبا خليف؟!

اسكتي يا امرأة، (و أما بنعمة ربك فحدث،) هذا من خيرات الله. أفاضه علينا شريكنا، أبو شريف، الله يرضى عليه.

- الله يرضى عليه،

- قصدته فلم يردني خائبا، تألم كثيرا، كاد يبكي حين علم بشكواي. جعل يضرب كفا بكف. قال لي: الناس للناس يا أبا خليف، الصديق عند الضيق، قال هذا ومد يده إلى الجرار. أخرج منه. خمس ورقات، أم الحصان، تطقطق! جديدة! (نيف) ثم أقسم إلا أن آخذ كسوة الأولاد، فجعل يكيل ويقص، يقص ويكيل، خذوا هذا كله لكم، الخير لقدام!

- هذا كله لنا! صحيح يا، أبا خليف؟

- بالطلاق صحيح، بالطلاق بالثلاث، هيا افتحوا الصرر، كلوا، ألبسوا، وهذه خمسمائة ورقة، خرجية الصيد!. والله لن أنسى فضلك يا أبا شريف يا شهم، افتحوا، افتحوا.

وفتحتم الصرر، بهذه الجملة عقّب الأستاذ على رواية خليف وأبيه، أكلتم ما لذ وطاب من خيرات المدينة، تخاطفتم الحلوى،

تقاسمتم الغنم. نشرتم بضاعة أبي شريف أمامكم، رحتم تتفرسونها بإعجاب !

– رحم الله والديك يا أستاذ والله لكأنك بيننا !

– أكمل يا خليف، أكمل حكايتك الجذابة.

– كما تحب يا أستاذ ، (راحت السكرة، وأجت الفكرة) كما يقال في الأمثال الشعبية، يومها تجاسرت أمي، سألت أبي :

– قل لي يا أبا خليف، عندما أعطاك أبو شريف الدراهم والقماش هل رآكما أحد ؟

– أبدا (الرجل زلمة زين) كل ما فعله أنه وضع إبهامي الأيسر على (قصقوصة ورقة).

قصاصة ورقة، قصيصة (قصقوصة) المهم أن أبا شريف وضع رجل أبيك في حبل الفلقة ! أكمل. ! ماذا حدث في الموسم الثاني ؟

– في الموسم الثاني، لم يستطع والدي تسديد ديون شريكه، زد على ذلك أن العجاج أتلف معظم المحاصيل، عقب الأستاذ:

– والقحط أتلف الزرع وأهلك الضرع ووقع أبوك على (قصقوصة) ورق ثانية وأعاد الكرة في السنوات التالية :

– نعم. نعم يا أستاذ. ولما حاولنا منعه لكي يؤجل الديون إلى أن يفرجها الله. ظهر على حقيقته! كشَّر أنيابه، وهدد أبي،

إما بإعطائه أرضه كاملة، وإما أنه سيسجنه. لأنه وقعه على وصل أمانة كذا، قال الأستاذ :

- أسقط في يد والدك، استسلم للأمر الواقع، حُجِر على أرضكم. صارت ملكه، وأصبحت سندات الأرض باسم أبي شريف، وأضحى هو المالك الوحيد.

- ونحن أجراء عنده كما ترانا يا أستاذ، بل عبيد عنده، العرق منا والمحصول له، أنظر حالنا، وكيف صرنا !

انظروا إلى حالنا وحالكم يا أبناءنا الصغار، إنني أخاطبكم ونحن نحتفل معا بمناسبة انتهاء العام الدراسي 1950-1949 تأملوا حالة آبائكم وهم يعملون أجراء، بل عبيدا عند أصحاب الأراضي، آباؤكم هؤلاء أجرموا بحقكم، وبحق أنفسهم، آباؤكم (أكلوا الحصرم وأنتم تضرسون). إنكم تعيشون حياة الحرمان، وغيركم يتنعم بخيراتكم، (و أشرت إلى التاجر أبي شريف) الذي تصادف وجوده في القرية ذلك اليوم لأنه جاء يجمع أموال الغلال.

لقد اغتصبوا أراضيكم من الفرات شمالا إلى البطين جنوبا. عليكم أن تناضلوا لاسترجاع حقوقكم، وأراضيكم لا قيمة للسندات أمام وحدة هدفكم، السندات تقضمها الفئران، والظلم يقهره الإنسان.

صفق التلاميذ بحماسة. صفق الكبار بحذر.

معظم تلاميذي مازالوا أحياء يرزقون، أطال الله أعمارهم أعرفهم واحدا واحدا، أحمد العلي، محمد الزبار، محمد اليونسي، حسين الحميد، حسن الشيخ وغيرهم، كانو في نهاية ذلك الحفل أكثر تحمسا لوحوا قبضاتهم، توعدوا أبا شريف وأمثاله، شكلوا مظاهرة عفوية.

أبو شريف راوغ كثعلب يجيد فن المكر، اختلط بالأطفال صار يهتف معهم، يسقط، يسقط، يسقط، يعيش، يعيش، يعيش !

دنا مني أبو شريف صافحني بحرارة هنأني على جرأتي قال لي بالحرف الواحد: هكذا يكون المعلم وإلا فلا ؟

جرأتي كانت حديث أهل القرية. سماني البعض بالثوري، الآخرون نعتوني بالمنقذ، مفتّح البصائر، خطبتي المتواضعة، وصل صداها إلى المدينة.

ضحى يوم السبت من الأسبوع الثاني، بينما كنت في حجرة الدرس والتلاميذ يتمتعون بالفرصة بين الدرسين ويسرحون في (النحامة)، صاح بعض الأطفال فجأة: غيّمت، غيّمت، جاءني أحدهم راكضا ويلهث وقد لملم طرف ثوبه بجمع يده، دخل الحجرة صائحا: غيّمت، غيّمت.

أعرف ماذا تعني كلمة (غيّمت) عند القرويين، يستعملونها حين دخول الدرك إلى قريتهم،أو حين يداهمهم الخطر،أو حين يأتي جباة جمع الضرائب. بعيد لحظات توقف شخير سيارة

المعارف، ترجل السيد المفتش نفض الغبار عن ثيابه، سوّى طربوشه الأحمر على رأسه، سار بين التلاميذ كديك رومي. دون مقدمات، وبوجه مكفهر -و العياذ بالله- أومأ إليّ أن أتبعه على انفراد، توجست شرا.

في الحجرة أخرج ورقة كتب عليها أمر بنقلي الإجباري الفوري، الوثيقة موشاة بتوقيع السيد المدير القدير، ممهمورة بالخاتم الشهير ثم أمرني أن ألملم أغراضي الشخصية وأرحل معه في سيارته !

في سيارة سيادته تكومت كأني كتلة قهر، عيوني كانت تجوس كما عيني نسر أقعى أعلى قمة جبل. وهو مهيض الجناحين. رحت أقلب ناظري بين تلاميذي، تلاميذي أدركوا ما حل بي، تحلقوا حولي، رجوني ألا أمتثل للأمر. بكوا بحرقة. ! هتفوا. ! تشبتوا بالسيارة، منعوها من التحرك كونوا أمامها سدا بشريا، بعض الأطفال رشقوها بالحجارة.

سائق السياة راوغ، انفلت يعدو. كسر الطوق، مضى بعيدا والحجارة لا تزال تلاحقنا.

حين أصبحنا في منطقة الأمان، بعيدا عن متناول الحجارة، أحب السائق أن يداعبني ليكسر موجة التوتر الانفعالي فقال : والله لك شعبية يا أستاذ، الكل يحبونك لم يعلق أحد، مضت سيارة المفتش الهمام تثير العجاج الكثيف ليشكل سدا بيني

وبين قرية (موحسن) أو (موح حسن) التي ودعتها تلك اللحظة مرغما ، غير أنني أودعتها أمانة النضال ضد المظالم.

الصمت القاتل كان يقتلنا نحن الثلاثة لا نسمع سوى شخير محرك أو نباح كلب أورفرفة جناحي طائر أجفل.

لاحظت شفتي المفتش تتحركان، كأنّ به يحدث نفسه، أو أن أشيا ء مكبوتة فيه يريد إطلاقها ليريح نفسه. ما خاب حدسي، نطق السيد المفتش قائلا : - الحقيقة يا أستاذ إن من يتمتع بهذا القدر من حب الناس لا يمكن أن يناله الأذى منهم.

معذرة أيها السيد المفتش، لعلي لا أكون مخطئا إن قلت لك أنهم -في المدينة- أفهموكم أن حياتي في خطر وأن أهل القرية يخططون لاغتيالي. لذلك اتخذتم قرار نقلي العاجل لإنقاذ حياتي.

حرك المفتش طربوشه الأحمر، تحركت شرشوبته في كل الاتجاهات ثم أومأ برأسه علامة الموافقة، أجبت بجرأة المكلوم :

- يا سيدي إن مصالحهم في خطر، وجودهم هم كمستغلين في خطر ! أدرك يا سيدي أن نقلي القسري صدر عنهم أو بإيعاز منهم. وليس بمبادرة من مديرية المعارف !

أنقلوني يا سيدي، أبعدوني إن شئتم وحيثما رغبتم، إلى السوسسة إلى معدان عتيق، إلى الربع الخالي، وهناك لابد أن

ألتقي أناسا مسحوقين ولا بد أن أقول لهم أيضا : السندات تقضمها الفئران، والظلم يقهره الإنسان.

الظلم من الإنسان، يقهره الإنسان، لا تسكتوا ، طالبوا بحقوقكم، قاوموا بهذه الكلمات وجدتني أطلقها وأنا أشارك وسط تظاهرة عارمة أمام سجن دير الزور الملكي عام 1955 احتجاجا على اعتقال شباب قرية موحسن. وإيداعهم السجن، إنهم أبناء أول قرية سورية يثور أهلها على الظلم والقهر.

كنا نحن في الخارج نهتف، يسقط الاستغلال، يسقط مصاصو دماء الشعب، بينما كانت هتافات المساجين تصلنا من الداخل، وهم ينشدون يا ظلام السجن خيِّم.

و بينما كنت وزملائي نخوض هذه المهمة، كانت بعض أيدي تلاميذي القدامى تربت علي كتفي استحسانا ، كأنهم يقولون لي، لا تخش يا أستاذ نحن معك، تابع يا أستاذ نحن هنا ، وهذه بعض آثار دروسك لقد حشوت البارود في قلوبنا ، وها نحن نفجره. لم تفض التظاهرة حتى أخلي سبيل جميع المعتقلين ثم تفرقنا على أمل اللقاء في ساحات أخرى، ولسان كل واحد منا يردد : «السندات تقضمها الفئران، والظلم يقهره الإنسان».

قرية مناضلة، أكلت فئرانها جميع سندات القهر.

ماري - مريم

أنبش عمق الذاكرة. تنداح فقاعات التذكر، تسترخي متثاقلة لتتكئ على الجانب الأيسر من الشغاف المتلهف إلى استرجاع ومضات من أشرطة الزمن السحيق المتسربل بأجنحة التاريخ الغابر.

لقطة من أشرطة التاريخ الغابر، جاءت موشحة بالدكنة الذاتية القاتمة التي عتمت الرؤية دوني.

لقطة أخرى، انبجست من وجه أنثى، انتزعتني من رحم مجدب، وضعتني في عمق البعد الثالث المنتعش في ذاتي.

هذه الأنثى، ماري مريم، مريم ماري، إسما لزهرة واحدة، أتقنت الأقدار صنعها، أبدعت تكوينها، رسمتها سناء مزهرا في دربي منذ اثنين وستين عاما من السنين الخوالي الحبلى بالمتناقضات.

هاتيك السنون تعتبر أزلا بالنسبة لعمر إنسان! حدثت أثناء هذا الأزل أحداث تنسى، أخرى تنغرز في الخلايا، لا تمحى و لا تنسى. !

نادرة هي المؤثرات التي تجرد الإنسان من أسلحة النسيان أو تخضع كرها لساحتها، وشمها، لا يزال يحفر في ذاكرتي أخاديد، لا تزال تطمر في ثنايا فؤادي طلسمات هي كالتعجب والاستفهام، أصابني بمخدر، مازلت وسأبقى مخدرا رغم إطلالتي على العقد الثامن، فكما كنت بالأمس البعيد، مازلت أتذكر بإجلال المتيم، وشغف العاشقين، قصة «ماري – مريم» التي كانت في تلك الحقبة مجرد جارة ما كنت أعرف بعد قيمة الجار ولا حرمة الجوار،كل ما كنت أعرفه آنذاك مرابع الصبا حارة تلمنا، حوشانا اللذان شهدا درج خطانا، طلاوة حديثنا. عذوبة نطقنا ونحن نكسّر الحروف تكسيرا، يوم كنا نلفظ الراء غينا والسين ثاء، كما شهدت معاركنا -نحن الصغار-.

لا أتذكر أنني عدت يوما إلى داري ولا أكون قد أثخنت جراحا، أو أكون قد شججت رأس قرين أو أكثر! الوحيدة التي شذت عن القاعدة هي جارتي مريم لكونها كانت تأنس بي، وآنس بها. ولا أدري إن كانت شجاعتي أو شقاوتي وربما كلاهما قد أثارا إعجابها آنذاك، كانت ألصق الناس بي وأنا أكثر تلهفا لها، كنت أطرب لحديثها، أصيخ السمع، حتى إذ أتحدث مع أهلها كنت ألتقط وجيب قلبها أحس نأمتها من خلف الجدار السامق الذي يفصل بين دارينا!

يوما التقط سمعي المرهف أصوات استغاثة، عويلا مريرا جاءني من دار مريم. جريت نحو باب دارهم ألفيته موصدا

بإحكام، دون تفكير، وبفعل منعكس شرطي. بحسب نظرية «بافلوف» ربما يكون فعلا فطريا ، وجدت نفسي كهر خفيف الحركة. أتسلق الجدار وألقي نفسي من ذاك العلو، غير مبال بالأخطار، وجدت أخاها يشبعها ضربا ، أخذتني الحمية انهلت عليه لكما وضربا ، افتتكتها من بين يديه، رحت أتأملها بفضول فطري أيضا ! حين رأيت ابتسامة عذبة تشع من شفتيها ، فتنت بها ، اعتبرت ابتسامتها عربون ود أبدي، أو اعترافا بجميل.

كبرنا ، كبر الصغار، كبرت مفاهيمنا ، تعاقبت أحداث، تغيرت أمور، سوى نبضات قلبي مازالت، كما كانت ترصد خطوات «ماري، مريم».

ذات ليلة، رأيتها تدنو مني، حيث برقة، جلست قربي على الدكة الترابية التي يبنيها كل واحد من أبناء الحارة في شهر رمضان، أمام البيوت، لكي نتناول فوقها طعام الإفطار.

كان عمري تلك الليلة قد تجاوز الثانية عشرة، تورم ثدياي، ظهرت بحة جلية على نبرات صوتي. ابتدأت أحس حرارة أنفاسها وهي تلفح وجهي، أول مرة في حياتي، أشعر شيئا غريبا يغزوني، خانتني قوتي، شلت قدراتي الكامن منها والبارز، لكنني استجمعت شتات قواي، تحدثت أي حديث، سألتها :

– هل أنت مريم، أم ماري ؟ اختلط علي اسمك ؟!

دنت مني أكثر، اضطربت أكثر، اهتزت أوصالي رحت أرتعش كمن أصيب بمس، ربما أدركت ما أعاني لذا راحت تحدثني حديثا رقيقا هامسا دافئا.

– سؤالك عن حقيقة اسمي، يقودني إلى أن أروي لك حكاية طويلة تشبه حكايات المغامرات الأسطورية لكنها انبثقت من رحم الواقع، ابتدأت منذ نعومة أظفاري، أتذكرها كاليوم، لكن لا بأس أن أعود إلى ذلك اليوم الشؤوم يوم حملتني أمي بين ذراعيها ، وراحت تجري بي بكل ما أوتيت من قوة وهي تصرخ، تستغيث، صوتها تبخر آنذاك بين يم من العويل الهادر،

أبي ليس بعيدا عنا كان هو الآخر يجاهد يحمل أخي الأكبر تارة، يجره تارة أخرى، يحرص عليه من التعثر، لأنه مريض مرضا عضالا ، ومع ذلك كان أبي يسبقنا لكي يفسح لنا الطريق كي نهرب بيسر ! في هذ اللحظات العسيرة هاجمنا فرسان مدججون بالسلاح، شقوا جموعنا ضربوا أعناق الرجال بسيوفهم.

أحدهم أهوى على رأس أبي بفأس، تفجر دمه كنافورة ثائرة، ما كنت قد رأيت دم إنسان ينزف بمثل هذه الغزارة ! أهمى على وجهه يسبح في بحيرة من دم، رجلاه ابتدأتا تخبطان الأرض أرتعش جسمه، ثم، ثم همد إلى الأبد !

سنابك خيولهم، سحقت جسم أخي، عجنت لحمه وعظمه، صار يتدحرج، يتطاير شلوا شلوا ، مازلت بين يدي أمي أرتعش

كالمحمومة، كانت تجر أخي الصغير وهي تلهث كما فرس أنهكه المضمار، ما كنا وحدنا نجري، آلاف مثلنا، المحظوظون منا -و هم قلة- كانوا يمتطون الخيول، أو يركبون الحمير والبغال الآخرون تجرهم العربات القديمة التي كانت تصر صريرا جنائزيا، ما كان في مقدورنا أن نفعل شيئا غير الجري. رحنا نعدو نلهث، نسقط نتعثر، همنا أن نبقى مع الركب المفجوع !

داهمنا الليل البهيم، حططنا الرحال عند صخرة عظيمة تستند إلى سفح جبل سامق لعلها تقينا لسع البرد أو تصد عنا الريح العاتية.

هكذا يا صديقي عدنان، حتى الطبيعة شاركت في تضخيم مأساتنا التي لم يشهد التاريخ لها مثيلا. إيه يا عدنان إيه !

- لم كل هذا ؟! من فعل بكم هذا ؟ ماذا جنيتم ؟.

لا تتعجل، دعني أكمل قصتي، لعلي أعطيك جوابا شافيا عن ازدواجية اسمي تأكد يا عدنان أنني أثق بك لأنك من القوم الطيبين، ولأنني أفضلك علي أترابك لأنك شهم، أخذت بالإطراء، رجوتها أن تكمل قصتها.

ما كدنا نحط رحالنا حتى رمتنا السماء بقرب مياهها، تبللت أجسامنا بثوان، صار الماء فوقنا ينهمر مدرارا، وتحتنا سيولا جارفة، زوبعة أخرى لم ولن تمحي من ذاكرتي، ستبقى موشومة في فضاء حياتي الباقية ذلك أن جماعة من الخيالة مرت بنا كالسهام، اختطفوا أمي، أمي يا عدنان، انتزعوها من

بين أيدينا، أنا وأخي توسلنا استغثنا لم يرق لنا قلب أحد ! زد على ذلك أنهم رفسونا بنعالهم الثخينة، أهمينا على وجهينا، صرنا نتدحرج كالكرة، غبنا عن الوعي !

على ضوء القمر الذي سرق نوره من وجه ماري. لاحظت دموعها تنهمر غزيرة على خديها المتوردين،حاولت مواساتها، أمسكت يديها الناعمتين البضتين بإحكام أحسست النعومة والدفء. فما أحببت التخلي عنهما، لم أشعر متى وكيف سحبت يديها، ولا أدري إن كانت قد فعلت هذا حياء فطريا، أم خشية مجتمعنا المحافظ الذي ما فتئ يمطرنا بكلمات الحرام والعيب. يجوز ولا يجوز، لكن نفسي سكنت حين افتر ثغرها عن ابتسامة عذبة ثم راحت تتابع حديثها كنت آنذاك في محراب قدسي لا أتقن غير فن التأوه والإصغاء.

- بعيد شهر، شهرين، عام عامين، أقل أكثر لا أدري سمعت الذين حولي يصيحون بفرحة : وصلنا حلب. وصلنا الشهباء، كل حواسي معطلة، سوى حاسة السمع لأنني كنت كما قطة مبللة مدثرة، أرتجف أسعل، تتقطع أحشائي، تصطك أسناني. الحمى تعبث في كل ذرة من ذرات جسدي ورغم ذلك كنت أخرج -متعمدة- يدي بين الفينة والفينة، لألمس وجه أخي اطمئنانا على وجوده قريبا مني لأنه الوحيد المتبقي لي.

سمعي مازال يلتقط أخفت الأصوات، وصلتني دمدمات رجال يتحدثون.

– من يشتري : «على دوة، على أونة، على تري» عندي صيد ثمين.

– لا، لا أكاد أصدق أيعقل أن يفعل الإنسان بأخيه الإنسان كل هذا. !

دنا مني رجل، كشف الغطاء عن وجهي تمتم كالمخبول !

– سبحان الله وجهها كالقمر. ! أحمر كالقرمز !

ما درى أنني أصارع الحمى، تقدم آخر، جس بدن أخي تماما كما يشتري نعجة حين يتلمس إليتها !

– أنا أشتري الأنثى،

– لا أبيع إلا الإثنين معا، إنهما أخوان، ولا أريد أن أزيد محنتهما بالتفريق.

– حسنا كما ترغب، سأرعاهما معا، زوجي عاقر، ستفرح بهما كثيرا،

– بارك الله لك بهما، دونك السلعة !

قهقهت أنا عن غير عمد، ما كان في نيتي الشماتة، بل التخفيف عما تعانيه ماري، التي كانت تتكلم وهي ترتعش، فخاطبتها مداعبا.

– إذن أنت سلعة !

– أجل يا عدنان سلعة في سوق النخاسة ومازلت سلعة ! إننا ظلمنا، نحن شعب مقهور، معتدى عليه !

شعب مقهور، مظلوم، معتدي عليه ! مفاهيم جديدة تغزو دارة أفكاري، تحدث في نفسي صراعا داخليا متباينا !

- لا تستغرب يا صديقي، هذا هو الواقع المر الذي عشناه بقعة الانفراج، التي شممت وأخي فيها طعم الأمن والسعادة، هي أن الله سلمنا إلى هذه الأسرة الكريمة، التي آوتنا وأكرمتنا، إنهم جيرانكم الطيبون الذين نحمل اسمهم الآن، لسنا وحيدين في مدينتكم الجميلة الراقدة على شواطئ الفرات بل مئات وفيها أكرمنا، فنسينا إلى حين من الدهر مأساتنا الكبرى، جزى الله مدينتكم وأهلها خيرا، لن ننسى نحن الأرمن ذلك، ومنها تكونت علاقات وشيجة بين شعبينا «الأرمني والعربي» لن ننسى، لن ننسى !

لا أريد أن أوجع رأسك كثيرا بالتفاصيل، وها أنا أعود إلى صلب سؤالك.

- حين اشترانا جاركم، وجلبني وأخي إلى هذه الدار كنت أسمّي «ماري ديميرجيان»، وأخي «بوغوص» فغيرا اسمينا صار اسمي مريم وأخي ابراهيم ورغم التغيير فقد كانت لفظتا «ماري، بوغوص» تأتيان عرضا ؟!

إيه هذه قصة اسمي،أنا أرمنية، أخي أرمني، هل ارتحت ؟!

قالت هذا وراحت تسبح بحمد القمر وتسرح في فضائه، حين لمحت وجهها بهذه الهالة وكيف كانت دموعها تنساب

على الوجه المرمري كاللّآلئ. تأكدت أن القمر قد سرق منا الوهج والألق، توارت بعيدا، تركتني مخمورا قبل أن أتذوق طعم المدامة.

تمر الأيام، صار لي شاربان، ماري نما جسمها، نفر نهداها، صارا يرقصان كرمانتين متدليتين على مقدمة فنن يافع، يريدا الانفلات. رد فعلي الوحيد، إنني رحت أتأوه وأبتلع ريقي، وبعد ذلك تباعدت لقا ءاتنا صارت حركاتنا تحصى في هذا المجتمع البدائي المحافظ، ورغم ذلك كنت ألتقيها لقا ء خاطفا، لا يلفت النظر.

في هذه الحقبة من الزمن الذي بدأت فيه أستوعب مفاهيم : القهر، الاستعمار، الظلم العدوان، أضيفت إلى قاموس حياتي، كلمات توغلت في روحي، كلمات عذبة جديدة. كلمات الغزل البريء، كلمات العاطفة والحب، فلم أجد غير كتب العشق والهوى فألتهمها، وقصائد الغزل أحفظها، أتغني بها لأسقطها على ماري.

قصة حب جارفة، لفتت انتباهي، لأن فارسها استطاع أن يختطف فتاة أحلامه وينأى بها بعيدا إلى حيث يرغبان، ولكن هل بمقدوري أن أكون ذلك الفارس ! فكرة الفروسية التي راودتني ذكرتني بالفرسان الظالمين الذين اغتالوا يوما أبا مريم، وهم أنفسهم اختطفوا أمها، هم أيضا داست سنابك خيولهم أخاها،

فكرة الفروسية أسقطتها، صرت أمقتها، الدوَّامة مازالت تدور، تنقلني من مشهد قاتم، إلى آخر أكثر قتامة !

شعبان بينهما قاسمان مشتركان، الاحتراق حتى النخاع ! الكفاح حتى النصر ! في لحظة مراجعة الذات ابتدأت ذكرياتي تنداح، تراجعيا، نحو أيام طفولتي المبكرة حين كنا نحفر في الجبل حفرا نختبئ فيها مقلدين المتقاتلين فنعثر على حطام جماجم. قالوا لنا أنها قبور الأرمن، كان الأتراك قد دفنوهم جماعيا هنا، توا أدركت بيقين لا يروم ولا يزوم، إن القاسمين المشتركين فرضا على الشعبين المغبونين، أما القاسم الأعظم الذي تيقنته بحدس معرفتي، هو أن الشعب الأرمني شعب حضاري واع، نشيط عامل، فجدير به أن يجد مكانة مرموقة تحت الشمس ويلملم شتاته، لتندمل جراحه، كيف لا وهو شعب أنجب (ماري ديميرجيان) !

في يوم واحد نلت وماري الشهادة الإعدادية، لحظة إعلان النتائج قوبل الناجحون بالزغاريد ونثر الحلوى وإطلاق رصاص الابتهاج ونحر الذبائح تيمنا بالحدث الفذ.

لأنني يتيم لم يزغرد لي، لم يزغرد لي أحد !

مريم ماري لم يزغرد لها أحد لأنها يتيمة هي الأخرى !. أمها اختطفت، أمها العربية بالتبني فارقت الحياة منذ أشهر. وهكذا وضعتنا الأقدار في شبكة اليتامى، واكتفيت وإياها بالتهاني الصادقة.

الشهادة الإعدادية يوم ذاك كانت بمثابة شهادة عليا، وبمرتبة مشرفة جدا، إذ أهلتني لأن أكون مديرا ومعلما وآذنا في قرية نائية، وبحجرة واحدة يتيمة تضم خمسة صفوف للتدريس ومكتبي كمدير، وهي أيضا غرفة استقبال الضيوف وأولياء التلاميذ كل هذا الخليط سمي مدرسة.

المهم أنني صرت معلما، أكاد أكون رسولا، وصار لي مرتب يؤهلني لتكوين أسرة صغيرة، لذا حزمت أمري بعد الاتكال على الله، فاتحت (ماري) بموضوع زواجنا منطلقا من منطق القوة.

تنهدت ماري أجابت بروية الحكيمات المجربات،

– ما فكرت بإنسان يكون شريك حياتي سواك أنا لك وأنت لي، كلانا تجمعنا كل القواسم المشتركة.

ما كانت الفرحة تسعني، غير أنها أكملت، ليتها لم تكمل !

– إنني مهاجرة، هجرة الرجوع إلى الذات.

– حب الوطن عبادة، وحبك حب عبادة، أحبك، أحبك، تعال إلى هناك أنتظرك هناك، سأمهد لك الطريق وسأراسلك باستمرار.

– عانقتها، عانقتني، طفرت عيونها بالدمع، نسينا الحلال والحرام والعيب !

مازلت أنبش عمق الذاكرة، تنداح فقاعات التذكر لتسترخي أحلامي الضائعة على الجانب الأيسر من الشغاف الممزق، فهل ماري مازالت هي الأخرى تنبش عمق الذاكرة ؟

فهرس

الجري في عصر ضبابي 9
ليرات أبي بكران 15
امتحان في تجاويف الذاكرة 25
تخطيط وتخطيط 31
وخزات غير مؤلمة 39
الحقول البيضاء 47
الأشجار تزهر في آذار 57
رزنامة زمنية لأحلام الشباب 61
قضية نسبية.......... 69
خمسة ضرب ستة.......... 75
مخزن علل 85
رمم على الدرب 91
الأرض عكسا تدور.......... 97
النباح المباح 111
عندما تضيء الورود 123
سوداء باريس 131
خربشات في حنايا النادي 141
ضربة على الحافر.. وضربة على المسمار.......... 147
وصايا جدتي 153
أنشيلا.......... 161
السندات تقضمها الفئران.......... 169
ماري – مريم 179

أنجز طبعه على مطابع
ش.ذ.م.م. مطبعة الشهاب
ع. قرفي - باتنة